# رجعة أبى العلاء

تأليف

عباس محمود العقاد

بسم الله الرحمن الرحيم



**مقدمة الطبعة الثانية**

## علامات الخلود

ثلاث علامات من اجتمعن له كان من عظماء الرجال . وكان له حق فى الخلود :

فرط الإعجاب من محبيه ومريديه . وفرط الحقد من حاسديه والمنكرين عليه . وجوٌ من الأسرار والألغاز يحيط به كأنه من خوارق الخلق الذين يحار فيهم الواصفون ويستكثرون قدرتهم على الآدمية . فيردون تلك القدرة تارة إلى الإعجاز الإلهى . وتارة إلى السحر والكهانة ، وتارة إلى فلتات الطبيعة إن كانوا لا يؤمنون بما وراءها . .

وهذه العلامات الثلاث مجتمعات لأبى العلاء على نحو نادر فى تاريخ الثقافة العربية . لا يشركه فيه إلا قليل من الحكماء والشعراء . . فهو فى ضمان الخلود منذ أحبه من أحب . وكرهه من كره ، وتحدث عنه من تحدث كأنه بعض الخوارق والأعاجيب .

* * *

بلغ من منزلته بين مريديه أن وقف على قبره نيف وثمانون شاعراً يرثونه بُعيد وفاته ، فكان بلاغ قولهم مطلع قصيدة لأحدهم — أبى الفتح الحسن بن عبد الله بن حُصينة — حيث يقول :

العلم بعد أبى العـــلا مضيَّع        والأرض خالية الجوانب بلقع (١)

وهو مثل من أمثلة الإعجاب الذى اتفق عليه أولئك الشعراء . وكانوا فيه ترجمانا لمئات . أو ألوف من المعجبين . لم ينظموا الرثاء ولم يقفوا على ثراه . .

---

(١) بلقع : الأرض القفر .

وبلغ من إنكار حساده والجاهلين به أنهم جعلوه من أهل الجحيم، وألحقوه بأحقر ما يُسَبُّ من الحيوان ، واستجهلوه غاية الجهل ، واتهموه في فهمه وذكائه ! ..

قال رجل وقد عثر به : من هذا الكلب ؟ فقال أبو العلاء : الكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسماً ! ..

وذكر ياقوت بعض كلامه في معجمه ثم قال : « كان المعرى حماراً لا يفقه شيئاً ، وإلا فالمراد بهذا بيِّن ! » .

وسئل عنه على بن الحسن المعروف بشُمَيم وهو من نحاة القرن السادس . فغضب وقال لسائله ناهرا : ويلك ! كم تسىء الأدب بين يدى ؟ من ذاك الكلب الأعمى حتى يذكر بين يدى في مجلسي ؟ ! .. » .

* * *

وهناك أناس استعظموه ولكنهم لم يفهموه ولا حقدوا عليه ! وحسبوا أن قدرة الإنسان لا ترتقى هذا المرتقى ، وأن سر بنى آدم لا يخفى هذا الخفاء ، فألحقوه بعالم المجهول ووصلوا بينه وبين سيطرة الفلك وقضاء الأقدار ..

قالوا إن محمود بن صالح صاحب حلب اتهمه بالزندقة فأمر بحمله إليه من المعرة ، وبعث خمسين فارساً ليحملوه ، فدخل عليه عمه مسلم ابن سليمان وقال يا ابن أخى ! قد نزلت بنا هذه الحادثة فان منعناك عجزنا ، وإن أسلمناك كان عاراً علينا عند ذوى الذمام ، ويركب تنوخ الذل والعار ، فقال أبو العلاء : هوِّن عليك يا عم ! ولا بأس عليك ، فلى سلطان يذب عنى . ثم قام فاغتسل وصلى إلى نصف الليل . ثم قال لغلامه : انظر إلى المريخ أين هو ؟ فقال في منزلة كذا وكذا .. فقال زنه واضرب تحته وتدا ، وشدّ في رجلى خيطاً وأربطه إلى الوتد . ففعل غلامه ذلك ، وسمعوه وهو يقول : يا قديم الأزل ! يا علة العلل ! يا صانع المخلوقات وموجد الموجودات . أنا في عزك الذى لا يرام . وكنفك الذى لا يضام ...



الضيوف الضيوف ! الوزير الوزير ! ثم ذكر كلمات لا تفهم .. وإذا بهدّة عظيمة ! فسأل أبو العلاء عنها فقيل : وقعت الدار على الضيوف الذين كانوا بها فقتلت الخمسين .. وعند طلوع الشمس وقعت بطاقة من حلب على جناح طائر : لا تزعجوا الشيخ فقد وقع الحمام على الوزير .

ومن لم يكن عندهم ساحراً أو قديساً من ذوى الكرامات كان خارقة من خوارق التكوين أو طرفة من طرف الزمان ..

* * *

رووا عن تلميذه أبى زكريا التبريزى أنه كان قاعداً في مسجده بمعرة النعمان بين يدى الأستاذ يقرأ عليه شيئاً من تصانيفه ، وكان قد أقام عنده سنين لم ير أحداً من أهل بلده ، فدخل المسجد بعض جيرانه فرآه وعرفه فتغير من الفرح وأحس أبو العلاء بشىء فسأله : ايش أصابك ؟ فحكى له ما رآه ..

قال أبو زكريا فيما رووا عنه : فقال لى أبو العلاء : قم وكلمه ! فقلت : حتى أتمم السياق . فقال : قم . أنا أنتظر لك . فقمت وكلمته بلسان الأذربية — أهل أذربيجان — شيئا كثيراً ، إلى أن سألت عن كل ما أردت . فلما رجعت وقعدت بين يديه قال لى : أى لسان هذا ؟ قلت : هذا لسان أهل أذربيجان ، فقال لى : ما عرفت اللسان ولا فهمته . غير أنى حفظت ما قلتما . ثم أعاد علىّ اللفظ بعينه . من غير أن ينقص عنه أو يزيد عليه لى جميع ما قلت . فتعجبت غاية التعجب ! كيف حفظ ما لم يفهم ؟ .

وحدث أبو الحسن الدّلفى المصيصى الشاعر ، قال : لقيت بمعرة النعمان عجبا من العجب . رأيت شاعرا ظريفاً يلعب بالشطرنج والنرد ويدخل فى كل فن من الجد والهزل يكنى أبا العلاء ، وسمعته يقول : أنا أحمد الله على العمى كما يحمده غيره على البصر ..

تلك هى العلامات الثلاث مجتمعات لأبى العلاء : اطناب فى الإعجاب .

ونهاية فى الزراية(١) ، وحيرة فى كلام واصفيه كحيرة المتحدثين عن خوارق الغيب وعجائب الأساطير ..

وإذا بلغ من تعدد الجوانب برجل واحد أن يقول قوم إنه فخر بنى الإنسان ، ويقول قوم إنه كلب وحمار . ويسلكه أناس فى زمرة الشيطان ويحسبه أناس وليا مستجاب الصلاة . ويخيل إلى فريق أنه ساحر وإلى فريق أنه طرفة من الطرف وأسطورة من الأساطير — فذاك هو الأفق الواسع . وتلك هى العظمة الباقية .. ومن شهده فى زمانه فلا حاجة به أن ينتظر ألف عام ليعلم أنه باق إلى ألف عام . وأنه محتفل به بعد ألف عام . أو ينبىء الدنيا بامتداد خبره ما بقى لعصره خبر بين سجلات العصور .

* * *

وها قد مضى اليوم ألف سنة هجرية على اليوم الذى ولد فيه أبو العلاء لثلاث بقين من شهر ربيع الأول سنة ثلثمائة وثلاث وستين . ولد كثيرون فى هذه السنين الطوال كما ولد . ومات كثيرون كما مات . وتكررت الولادة والوفاة فى الأمم العربية مئات الملايين من المرات . ولكن ذلك المولد النادر لم يتكرر قط فى هذه السنين . ولم يزل مولد ذلك الوليد حادثا فرداً بين ثمرات الأصلاب والبطون . يستحق أن يعـاد إليه من سنة إلى سنة ، ومن جيل إلى جيل ، ومن ألف عام إلى ألف عام ..

وبين الذين كررتهم الدنيا ألوفٌ من أمثال ذلك المسكين المغرور الذى أغضبه السؤال عن أبى العلاء بين يديه ، ورأى من سوء الأدب فى مجلسه أن يعادله اسم على مسمع منه ، ولكن التاريخ الذى كررهم كثيراً ومل من تكرارهم طويلا لم يدركه الملال من ترديد اسم أبى العـلاء المغضوب عليه وعلى من سأل عنه . ولم ير من سوء الأدب أن يصبح ويمسى بتمجيده ، وأن يحصى الأحقاب بعد الأحقاب لملاقاته فى يوم عيده . بل رأى من سوء الأدب أن تمضى ألف سنة ولا يستوقف الزمن الماضى محتفلا

(١) الزراية : زرى عمله عليه زراية عابه وعتب عليه .



بذكراه ، مستعيداً لميـلاده ، مشيراً إلى مطلعه كما يشار إلى ظواهر الكون التى تستعاد ، لأنها قلما تعود ..

ولقد وقف على قبره — يوم وفاته — ثمانون شاعراً أو يزيدون ، وتقف على قبره اليوم أمم العروبة جمعاء ، وأمم شتى من جميع الأقطار والأنحاء ، مئين أو فوق المئين ، ينوب منها الشاهدون عن الغائبين .

وإذا عدل الزمان ، فهذا الوفاء هو سواء الميزان ، بين أناس وسموه بعزة القدر ، وأناس وصموه بخسة الحيوان .

* = *

تسلّفت هذه الذكرى قبل ست سنوات ..

وكانت الصحف السورية قد نقلت إلينا فى ذلك الحين أن حكومتها فرغت من مراجعة رسم التابوت الذى أزمعت إقامته فى المعرة على قبر أبى العلاء ، وأنها تعد العدة للاحتفال بانقضاء ألف سنة هجرية على وفاة الشيخ والصواب على مولده كما هو ظاهر ، وكما نشير إليه بعد سطور فخطر لنا أن أبا العـلاء قد دعى من حظيرة الخلود إلى شهود ذكراه . وأن الأمد لا يزال فسيحا بيننا وبين ذلك اليوم المشهود ، ففى ذلك الأمد متسع لرحلة علائية حول الكرة الأرضية ، يرى فيها ما يعنينا أن يراه ، ويقول فيها ما ينبغى أن يقول ، أو نقول نحن على لسانه ما يشبه مقـاله فى أوانه ، قياسا على ما صنع هو فى السماء حين حدثنا فى رسـالة الغفران بلسان الأدباء والشعراء ، وجعل لهم من كلامهم وأخبارهم دليـلا له فى كلامه وأخباره ..

فكتبنا يومئذ سلسلة هذه الفصول التى سميناها « رجعـة أبى العلاء » وعرضنا فيها حوادث الدنيا كما تتمثل له ولمن ينظرون إلى أمور العصر الحاضر مثل نظرته فى سائر الأمور . ونحسب أننا أتينا بصفوة الآراء التى توافقه وتستخلص من جملة تفكيره ... ما لم يكن قد تغير نظره بعد موته ، وهو مستحيل ! ..

ونحسب كذلك أننا لم ننحله رأياً ينكره لو أنه عاد إلى هذه الحيـاة الدنيا فى زماننا هذا . لأننا شفعنا آراءه الحاضرة بأقواله المحفوظة فيما عرض له من خطوب زمانه . فتشابهت الأقوال وتقاربت الأحكام . وبقى على من يخالفنا أن يزعم أن هذه الآراء غريبة عن منحى أبى العـلاء فى تفكيره . ويثبت ذلك بكلامه وآرائه فى مثل ما نحلناه . ويومئذ يظهر أن الإنكار هو الدعوى التى تفتقر إلى الشواهد والبينات .

* * *

وقد مضى الآن زهاء ست سنوات منذ كتبنا هذه الفصول . دارت فيها الأيام دورتها واضطربت فيها الحوادث اضطرابها . فلا شك أننا حين وصفنا الحوادث كما وصفناها واستطلعنا العواقب كما استطلعناها . لم نقحم على حكيم المعرة رأياً كذبه الواقع وأنكره الحق الصادع . ولم ننحله قولا يزرى بصائب فهمه أو يقدح فى صادق حكمه . فإن كنا وافقناه فقد أرضيناه . وإن كنا خالفناه فما أخجلناه .

ومن محاسن الاتفاق أن تحتفل الأمم العربية بتمجيد أبى العـلاء وهى تتطلع إلى استقلال كريم يرضى الحكيم العربى الصميم . وتنهض إلى مجد طريف يستجد لها معالم المجد القديم . وأن تعاد « رجعة أبى العلاء » فى طبعتها الثانية والدعوة إلى الاحتفال جارية إلى مجراها . ووفود الحجيج معرى مستبقة إلى ملتقاها . فهى تحية فى الأوان . وقربان على ذلك المحراب ... مزاجه الشكر والعرفان ..

عباس محمود العقاد



# تمهيد

منذ سنة وشهور نشرت الصحف من أنباء سورية « أن حكومتها فرغت من مراجعة رسم التابوت الذى أزمعت إقامته فى المعرة على قبر أبى العـلاء . وأنها تعد العدة للاحتفال بانقضاء ألف سنة هجرية على وفاته . أو على ميلاده كما هو الأصوب .. فالمعرى كاره الحياة يعاد طوعاً أو كرها إلى الحياة كرة أخرى ! ..

خطر لى هذا الخاطر فأحببت أن أتخيل « رهن المحبسين » يجوس بيننا خلال الديار . ويتمرس بأحوال الأمم فى عالمنا الحاضر . فماذا هو قائل ؟ وماذا هو فاعل ؟ ..

لاشك أن أحوالا كأحوال العصر الحاضر قد كانت مشهودة معهودة فى أيام أبى العلاء . ولا شك أننا واجدون فى كلامه حكماً مكشوفاً أو ملفوفاً على جميع تلك الأحوال . فأما ما يختلف من شؤون زماننا وزمانه فهل يستطاع قياسه والنفاذ إلى رأى أبى العلاء فيه وفاقاً لذلك القياس ؟ وهل فى مقدورنا نحن أبناء هذا الزمن أن ندعو الحكيم للجهر برأيه فيه ؟ ذلك ما قد حاولناه فى هـذه الصفحات (١) . ونحسب أننا قد أصبنا فيه بعض التوفيق . ان تعذر التوفيق كله فى مجال الفرض والتخمين ..

ومضت فترة ولم نسمع خبرا عن المحفل المنظور : هل تم بناء الضريح ؟ وهل تم نحت التابوت ؟ وهل تمت العدة ؟ وهل شريت الدور التى تحجب قبر الحكيم ؟ الأرجح أن هذا كله ماض فى طريق التمـام . وأن المحفل المنظور قائم فى موعد قريب ... لكن أبا العـلاء الذى بعثناه وأطفناه بالعـالم كله مع بعض تلاميذه قد بلـغ غاية المطاف . وسئم المضيفين

(١) نشرت هذه الفصول والأبواب فى صحيفة البلاغ الغراء ماعدا الأربع الأخيرة فلم يسبق نشرها ..

والأضياف . وأحب أن يثوب إلى داره وأن يقر فى قراره . فنحن هنا مثبتون قصيدا لأبى علائنا يودع به من سوف يستقبلونه . ويعتذر به لمن يمسكونه فى الدنيا ولا يرسلونه . ويقول أو نقول فى مكانه . ما ينبغى أن يجرى على لسانه . وذلك هو نشيد الوداع فى ختام هذه الصفحات . أثابنا فى نظمه على سنة اللزوميات . فله الحسنة منه . وعلينا نحن السيئات ..

. . .

قيل أن بعض المكتبات الإيطالية أهابت بالأدباء من العرب أن يوافوها باسم الأديب الذى تجتمع فيه خصائص العبقرية العربية . فأجمعت الآراء على أنه هو أبو العلاء ..

وقواعد الانتخاب ليست بمقطع الرأى فى مزايا الفنون والآداب . ولكنا نراها فى هذه الفتوى قد حكمت بالصواب . وأجابت أحسن الجواب .. إذ الحقيقة أن حكيم المعرة خير من يمثل الذهن العربى والسليقة «السامية» غير مستثنى فى ذلك أحد حتى صاحبه أبو الطيب ... لأن تمثيل الذهن غير تمثيل «الطبيعة العملية» التى يرشح فيها أبو الطيب للمكان الأول بين شعراء الضاد . وأبو العلاء هو الذى يمثل الذهن العربى فى تفكيره وفى مقاييسه وفى نظرته إلى الدنيا . دون سائر المفكرين من الشعراء .

. . .

وعسى أن تكون هذه الآراء التى وضعناها على لسانه وقسناها إلى المعهود من كلامه هى ترجمان الذهن العربى حين ينظر إلى حقائق العالم فى زماننا الحديث ..



# وفـد

نقلت الصحف من أنباء سورية أن حكومتها فرغت من مراجعة رسم التابوت الذى أزمعت إقامته فى المعرة على قبر حكيمها وحكيم العرب أبى العلاء . وأنها تعد العدة من اليوم للاحتفال بانقضاء ألف سنة هجرية على وفاة الشيخ . والصواب على مولده كما هو ظاهر . فان الأمد لايزال بعيداً بيننا وبين ذكرى وفاته . إلا إذا كان الغرض التقريب لا التحقيق . ولا حاجة إلى ذاك لقرب ذكرى الميلاد .

. . .

تمثلت مندوبى الحكومة السورية يحملون قرارها إلى شيخ المعرة . ويبلغونه أنهم سيبنون تابوتاً على قبره . وأنهم سيدعون علماء المشرق والمغرب إلى موطنه للاحتفال بذكرى ميلاده . فماذا يقول ؟ وماذا يقولون ؟

إن الشيخ ليتململ فى مضجعه بعد أن استراح فيه مئات السنين . وأنه ليخاطب جدثه اليوم كما خاطبه وهو فى قيد الحياة وقيد المحبسين :

ياجدثى حسبك من رتبة ‏ ‏ أنك من أجداثهم معزلا
أملنى الدهر بأحداثه ‏ ‏ فاشتقت فى بطن الثرى منزلا

ثم يسأل متثاقلا : من أنتم ؟ وماذا تبغون ؟ فلا يعلمونه من هم وماذا يبغون حتى يتهاتف قائلا : أتبنون لى تابوتاً ؟ أما قرأتم أو سمعتم قولى :

إن التوابيت أجداث مكررة ‏ ‏ فجنب القوم سجنا فى التوابيت

فيحار الجماعة . ولا يدرون بماذا يجيبون . ولكنهم حريصون على إقامة التابوت . وعلى تمجيد الرجل وتشريف مدفنه وتشريف ذكره . وسيكون بينهم ولا ريب أناس ممن عركوا السياسة وحذقوا أساليب الخطاب والتدرج فى المجاملة والإرضاء . فيقول قائل منهم : أيأبى مولانا الكرامة والتشريف ؟! ..

فيجيب الشيخ :

لاتكرموا جسدى إذا ماحل بي ريب المنون فلا فضيلة للجسد

ثم يقول :

إذا أنا واراني التراب فخلني وما أنا فيه ، فالتراب مؤنتي !

ثم يقول كما قال من قبل :

أأرغب في الصيت بين الأنا م . وكم خمل النابه الصيت(١)
وحسب الفتى أنه مائت وهل يعرف الشرف الميت ؟

فيلهم أحدهم أن يراجعه ببيت من كلامه ، وأن يذكره أنه ليس بميت وإنما هو حي خالد . أو ليس هو القائل :

وجدت الناس ميتاً مثل حي بحسن الذكر أو حياً كميت

• • •

فيأنس أبو العلاء إلى ما سمع ، ويعجبه أن يُروى له شعره بعد مئات السنين ، ويسألهم : وماذا تريدون الآن من جمع الجموع حول هذا التابوت الذي تبنونه ؟ أتراكم تمدحونني وأنا القائل :

إن مدحوني ساءني مدحهم وخلت اني في الثرى سُخت(٢)

فيجيبه أريب كيس من القوم يعرف كيف ينسلل إلى كمين الرضى من سريرة الشيخ . ويقول له : بل نثني على أنفسنا وعلى بلادنا بما أنجبتْ من فضلاء وأحيت من ذكرك وحفظت من أثرك . فانما يعيبنا ولا يعيبك أن ننسى هذا ونتمادى في نسيانه ، ولن يضيرك أن نكف عن مديحك وأنت القائل عرفانا بقدرك :

فلا وأبيك ما أخشى انتقاصا ولا وأبيك ما أرجو ازديادا

(١) الصيت : الشديد الصوت .
(٢) سخت : دخلت رجلاي في الطين وغابت . وفي الأرض : خسف .



ولكنه يضيرنا كل الضير أن يثني عليك الغرباء ونحن سكوت . وأن يمدح الناس من ملل الأرض حكماءهم وشعراءهم ولا نمدحك وننشد مناقبك وسجاياك ..

وكأنما يطلق ألسنتهم اصغاء الشيخ وارتياحه وما يعهدونه فيه من حب الصراحة والفكاهة فيقول منهم قائل : ثم ماذا يخيفك اليوم من المديح وقصاراك من خوفه أن تحسب أنك سخت في باطن الأرض ؟! لقد أصبح الخيال حقاً والحسبان واقعاً ، وجربت بطن الثرى مئات السنين .. فلا ضير عليك اليوم أن تسمع من المديح الدواوين والأسفار ! .

• • •

فيضحك الشيخ ويتفتح للحديث ويجرى معهم في مجراهم فيقول : لا يغرنكم يا أبنائي أنني أزهد في المديح وأنني أسكن إلى الزهد فيه وفي المجد والسلطان ، فما أبرىء نفسي من كبرياء ، وما أزعم أنني اخترت العزلة والفاقة عن صغر في المطامع أو قناعة بالحظ الوضيع ، ولكنني لا أرى لأحد عيشاً في هذه الدنيا إلا أن يسودها أو يستخف بها ويعرض عنها :

ذر الدنيا إذا لم تحظ منها وكن فيها كثيراً أو قليلا
وأصبحْ واحد الرجلين : إما مليكا في المعاشر أو أبيلا(١)

وما أتيح لي أن أصبح مليكا في المعاشر ، فأصبحت باختياري راهباً متبتلا أعرض عن الدنيا ولا أربها أنها هي التي أعرضت عني وبخست من حقي ! ..

إذا كان هذا الترب يجمع بيننا فأهل الرزايا مثل أهل الممالك

فيقول قائل منهم : نعم أيها الامام . لقد كررناك حتى فهمناك كما قلت في بعض شعرك :

يكررني ليفهمني رجال كما كررت معنى مستعادا

(١) أبيلا : راهبا .

فما تخفى علينا خافية من هواجس ضميرك ولا تغيب عنا خالجة من خوالج طبعك . وأنك لمناضلٌ مكبوح ومغامر محبوس ، وأن نفس الزاهد منك لمقرونة بنفس السيد الذى لا يدين فى الحياة لغير حكمه ، ويأنف أن يموت حتف أنفه . وقد عشت هكذا فى عالم الرأى آمرا لا يأمرك الحاكمون . وأبيًّا لا يخضعك المغلوبون . وتمنيت يوماً :

من السعد فى دنياك أن يهلك الفتى ... بهيجاء يغشى أهلها الطعن والضربا
فانّ قبيحا بالمسوَّد ضجعة ... على فرشه يشكو إلى النفر الكربا

وترددت بين القلم والسيف فقلت :

وإن العز فى رمح وترس ... لأظهر منه فى قلم ودرج
وما أختار أنى الملكُ يُجبى ... إلى المال من مكس وخرج
فدع الفيلك من عرب وعجم ... إلى حلقيك من قتب(١) وسرج
سراجك فى الدجنة عين ضار ... وإلا فالكواكب خير سرج

ويقول الشيخ مبتسما : لقد أحصيتم على فلتات اللسان وشوارد الأمانى وشطحات الأوهام ، وعلمتم بوصيتى حين قلت :

اقرأ كلامى إذا ما ضمنى جدثى ... فانه لك ممن قاله خلف

ولكنى كنت أوثر لو نسيتم بعضه ومنه هذا الذى ذكرتموه . فما أحسب إلا أننى حاذفه من جملة كلامى لو تمكنت من تلك الأوراق التى حفظتموه فيها .. فاحذفوه ..

* * *

ثم يخطر لبعض الحاضرين أنها فرصة لاتضيع ، فيسألونه : ألا نحمل إليك تلك الأوراق فنراجعك فيها تغير منها وما تأمر بمحوه ، بعد أن تنظر فى الدنيا نظرة وتطلع منها على ما استجد من حالها وتبدل من خلائق أهلها ..

(١) القتب : الرحل .



فإذا الشيخ يتجهم هنيهة وقد عاودته سوداؤه وانقباض صدره وذهب يقول :

أما خلائق أهل الدنيا فإنما يتبدل الرأى فيها لمن يراهم على إحدى حالتين :

فمن قال إنهم كانوا فى غابر زمانهم أهل ورع وصلاح وأصحاب كرم وتقوى . ثم عدت عليهم عوادى الزمن فصدوا عن سبيل الخير . فذلك خليقٌ أن يصف منهم شأناً ، ثم يعود بهم إلى شأن غير الذى وصف .

ومن قال إنهم اليوم جاهلون وغدا يعلمون ، وأنهم اليوم على عوج وغداً يستقيمون ، فذلك أيضاً خليقٌ بتبديل الرأى فى الناس عصراً بعد عصر وأمةً بعد أمةً .

وما أنا هذا أو ذاك ؟ .. أنا قد بلوتهم فعلمت أنهم لكذا كانوا منذ كانوا ..

وهكذا كان أهل الأرض مذ فُطروا ... فلا يظن جهول أنهم فسدوا

ثم بلوتهم ورجوت صلاحهم واستأنفت الرجاء فيهم وعجبت من أمرى معهم على شدة علمى بهم ، ومازلت أستغرب من تلك الحال التى أحاولها وتحاولنى :

وأعجب منى كيف أخطىء دائماً ... على أننى من أعرف الناس بالناس

حتى انتهيت إلى رأى لا يتبدل !

فلا تأمل من الدنيا صلاحاً ... فذاك هو الذى لايستطاع

نعم ذاك الذى ما استطعته وان تستطيعوه ، ولكن :

نزول كما زال آباؤنا ... ويبقى الزمان على ما ترى

* * *

وتذهبون فى كل مذهب وتطمعون فى كل مطمع ، ثم تعلمون بعد خطأ لا تزالون ترجعون إليه أنه :

حكم جرى للمليك فينا ونحن فى الأصل أغبياء !؟

فهو داء عياء ليس له شفاء ، وكنت أزعم أن الموت يبرىء الخلائق منه. فها أناذا معكم لم أكد أشعر بظل الحياة حتى استرجعت من دائها كل ما كنت أشكوه وأعالجه وأرجو الغلبة عليه ... كلا يا أبنائى : لا تحذفوا حرفاً مما كتبت فى خلائق الناس ، أو احذفوه كله فما هو بضائركم أن تجهلوه . وهو منا ومنكم فى الصميم ، وأنه لباق فى النفوس إن زال من الطروس ..

تمثلت هذا الحديث بين شيخ المعرة وبعثة الحكومة السورية إليـه . وأخال أننى على صواب حين أزعم أن الشيخ فى طليعة الحكماء الذين لايغيرون ما قالوه فى هذا المعنى بعد آلاف السنين . لأنه لم يؤمن بالنكسة بعد العلاج ، ولم يؤمن بالتقدم والارتقاء . فيتطرق الخلاف من أحد البابين إلى مُجمل ما قال :

لكن شيمة واحدة فى حكم المعرة أخالها لو تغيرت قليلا لتغيرت فلسفته جميعاً من الألف إلى اليـاء ، ولألغى كثيراً من سقط الزند وكثيراً من اللزوميات ، ولخرج بديوان يقرأه القارىء فلا يهجس فى خاطره ذكر المعرى المعهود . لأن تغيير تلك الشيمة يخرجه خلقاً جديداً لا يمت بقرابة ذهن ولا بآصرة تنسب إلى ذلك الحكيم الذى عرفناه ..



## صاحب الجلالة المعرى

قلت فى ختام الفصل السابق : « إن شيمةً واحدةً فى حكم المعـرة أخالها لو تغيرت قليلا لتغيرت فلسفته جميعاً من الألف إلى اليـاء . ولألغى كثيراً من سقط الزند وكثيراً من اللزوميات ... » .

فما هى تلك الشيمة ؟ ..

هى السمت والوقار ، أو هى كما نقول فى لغة العصر الحاضر أدب البيئة وأصول « اللياقة » ..

وهذه الشيمة فى الواقع وازعٌ قوى عظيم الهيمنة على جميع النفوس . وإن عدها بعضهم ثانية أو ثالثة أو رابعة فى ترتيب الزواجر الأخـلاقية والنفعية ، لاعتقادهم أن الزواجر إنما تفعل فى الطباع فعلها على مقدار ما يحيط بها من ضجيج وطنين ، أو على مقدار ما لها من أسماء وعناوين . لا على مقدار بواعثها من الطبع ومن قوانين الاجتماع ..

إن جميع الزواجر والأوامر والنواهى لاتُخرج دانقا(٢) ولاسحتوتا من كنز المرأة العجوز الذى تجمعه من الدوانيق والسحاتيت . ليكون لها بعد وفاتها مشهدٌ « يليق » ويجرى مع العرف الشائع بين البيوت .

وإن الرجل ليقدم على جميع المحظورات غير حافل بالعقاب أو سوء المآب . حاشا المحظور الذى « يسقطه » فى نظر الناس ويخل بقواعد المروءة فى البيئة التى هو منها . فذلك حد لا يتخطاه إلا وقد تخطى قبله جميع الحدود واجترأ على جميع المنكرات .

وإن الخمر والزنا والسرقة ، لفى درجة واحدة من التحريم فى بعض الشرائع السماوية ، ولكن الناس يجانبونها أو يستبيحونها على حسب

---

(١) السمت : هيئة أهل الخير ، والهيئة مطلقا .

(٢) دانقا : بفتح الدال وكسرها : عيار يساوى سدس الدرهم .

نصيبها من الزراية فى البيئات التى يعيشون بينها ، ونعنى بها بيئة المعيشة وبيئة المعاشرة وبيئة التفكير ، وربما وجد من الناس من يباهى ببعض تلك المحظورات فى بعض بيئاته ، وإن كانت فى بيئات أخرى مجلبة العار والمذمة والنفور ..

وربما استخف المرء أو المرأة بكل منكور وممنوع ، إلا أن يزف بنته أو بنتها مثلا فى شوار أقل من الشوار (١) المصطلح عليه ، مع أنه غير ممنوع فى دين ولا فى قانون ولا فى شرع معقول ، ولكنه ممنوع فى أدب البيئة أو أدب اللياقة .. فهو إذن أصعب الممنوعات .. !

• • •

والخلاعة هى غاية السقوط عند العرب أو عند المتكلمين باللغة العربية ، وإنما الأصل فى الخليع أنه الرجل الذى يخلعه أهله ويبرأون منه ، فهو من ثم يجلب على نفسه أكبر العار ، وإن لم يقارف شيئاً من معاصى الدين والقانون على حسب العرف الحديث ؛

وإنهم ليجدون متسعاً من القول فى كل عاص ، وكل جارم ، وكل آثم إلا الخليـــع فلا متسع فيه من القول بعد الخلاعة ... وما عسى أن يقول القائل فى خليع ؟؟ تلك غاية الغايات وقصارى الموبقات ، فلا ملامة ولا عتاب ! ..

المعرى مثل من الأمثلة البالغة على سلطان البيئة أو على سلطان أدب « اللياقة » وأدب العرف والتقاليد »

فهذا الحكيم الذى عرض على فكره كلّ أصل من أصول الحكمـــة وكل مذهب من مذاهب الدين ، فلم يقبل منها إلا ما ارتضاه برهانه ، ولم يتخذ له اماما غير العقل فى صبحه ومسائه .. هو بعد هـذا كله أسير « أدب اللياقة » يمنعه هذا الأدب ماليس يمنعه شرع ولا فلسفة ولا عقيدة وهذا القائل :

وسيّان مَن أمه حرة حصّان ومن أمه زانية !

(١) شوار : الشرار بفتح الشين : اللباس الحسن والهيئة .



هو هو الذى يأبى أن يدخل الوليد على النساء بعد بلوغه العاشرة ـ ويأبى أن تذهب المرأة إلى الحمام ، ويخشى على عرضها أن تخرج إلى الحج فلا يعده فريضة على عجز النساء ولا العذارى ! .

ذلك هو « السمت اللائق » بالمرأة فى شريعة البيئة ... فالسيدة الحَصان تنجبها الأسرة الوقور لن تكون إلا على هذه الصفة ، ومتى وصلنا إلى السمت اللائق أو إلى أدب اللياقة فأبو العــلاء وسائر أبناء البيئة سواء ، والفيلسوف الذى قال :

كذب الظن لا إمام سوى العــ ـقل مقيماً فى صبحه والمساء

لا يعنيه من امامة العقل هنا إلا ما يعنى قعائد البيوت وعجائز الأمهات والجدات ، ذوات البنات اللائى يلتمسن الأزواج فى ستر وحشمة وصيان !

• • •

ولعلنا تسهّلنا بعض التسهل إذ قلنا : إن أبا العلاء وسائر أبناء البيئة سواء .. فانه لأشد تحرجا من كثيرين ، وأنه ليحظر على نفسه ما يبيحه آخرون ، وأنه ليحسب الوقار جمالا لايدانيه جمال فى الرجال . فان حذر من الشيخوخة آفة فإنما يحذر أن يدركه الخرف :

وما أتوقّ والخطوب كثيرة من الدهر إلا أن يحل بى الهيتر (١)

وإذا رثى أباه فى صباه وهو يتخيل موقف الحشر ورهبة القيامة وزحام العطاشى على الحوض فليس ينسى أن يسأل عن ذلك الأب :

ألا ليت شعرى هل يخف وقاره إذا صار أحد فى القيامة كالعهن (٢)
وهل يرد الحوض الروى مبادرا مع الناس أم يأبى الزحام فيستأنى

فكأنه يقف بالدين والفلسفة عند باب العقل ، ثم يقف بالعقل عند باب الوقار أو أدب اللياقة ، ثم لا يسأل هذا السلطان الجائر سؤالا واحداً من تلك الأسئلة التى كان يشنها من كل جانب على جميع السلاطين وجميع

(١) الهتر : بكسر الهاء : الكذب ، والسقط من الكلام والخطأ فيه .
(٢) العهن : الصوف أو المصبوغ منه .

الدولات وجميع الأحكام . ولو أنه سأل وأباح نفسه الجواب الصريح لما أخذها بكل تلك الصرامة ولا أحال عليها كل تلك القيود .

أما مرجع ذلك السلطان الجائر من حياة أبي العلاء فهو أسباب كثيرة وليس بسبب واحد :

مرجعه إلى تربية الأسرة ..

فقد كان أبوه وأمه من ذوي الوجاهة والصلاح ، وكان آل أبيه يتوارثون القضاء في بلده ويعيشون بين الناس كما يعيش رجال الدين ورجال الحكم على شعائر المروءة والتعفف والأنفة من غشيان مواقع الشبهات ، وعلى الهيبة التي لا غنى عنها لمن يسوسون الرعية باسم الله واسم السلطان ..

ومرجعه إلى الخليقة العربية ..

فقد كان أبو العلاء عربي النجر(١) عربي الطبيعة ، يفهم أن العرض قوام الشرف والعزة ، وأن الابتذال هو الهوان الذي ما بعده هوان ، وأن الرجل الذي يجترىء عليه المجترىء بملامة أو سخرية هو حمى مستباح ، وأن من لا حياء له لا حياة له ولا خير فيه ، وأن السنّة ما سنّه الآباء وجرى عليه العرف وسارت به الأمثال وحسنت به القدوة .

ومرجعه إلى فقد بصره ..

فإن الضرير قد يصيبه السخر والملام لأمور يواقعها البصير ولا من يسخر به أو يلومه . وأن البصير قد يمارس من الشهوات ما يأمن الفضيحة فيه . لأمانه من أن يطلع عليه أحد غيره ، وليس ذلك في مقدور الضرير : فإما الفضيحة والعار وأما الزهد والوقار .

ومرجعه إلى كبريائه وعزّة نفسه ..

فإن الأعمى قد تهون عليه الفضيحة في سبيل الشهوة ، إلا أن تكون له كبرياء تأبى له المهانة والابتذال ، فيهون عليه فقد الشهوات واقتناء الكرامة ..

(١) النجر : النجر والنجار : الأصل والحسب .



ولقد رأينا أن أبا العلاء كان لا يرضى من الدنيا إلا بالسيادة عليها أو بالإعراض عنها . فإما الملك وإما الرهبانية ولا توسط عنده بين الأمرين .

فلا يحسبن أحد أن « فكرة الملك » عارضة في ذهنه كما يعرض الخاطر في خلد الشاعر . فإن « للمجد الدنيوي » لنزعة مكبوتة في قرارة ضميره يدل عليها شعره ونثره . ولا تزال غالبة عليه في جمحات الأهواء وفلتات اللسان . فسرعان ما يثب إليها كلما عرضت لها لمحة ظهور . وله في ذلك أبيات تعد بالعشرات منها :

لا ملك لي وأرى الدنيا تحاصرني ... وما حججت وقد لاقيت إحصارا

ومنها :

ما سرني بقناعة أوتيتها ... في العيش ملكا غالب وذمار(١)

ومنها :

لو شاء ربي لصاغني ملكاً ... أو ملكا ... ليس يعجز القدر !

ومنها :

وزهدني في هضبة المجد خبرتي ... بأن قرارات الرجال وهود

ومنها :

لا كانت الدنيا فليس يسرني ... أني خليفتها ولا محمودها

ومنها :

محمودنا الله والمسعود خالقه ... فعدّ عن ذكر محمود ومسعود

ملكان لو أنني خيرت ملكهما ... وعود صلب ، أشار العقل بالعود

ومنها :

ما سرني أني إمام زمانه ... تُلقى إليّ من الأمور مقالد

ومنها :

أسر إن كنت محموداً على ضعفي ... ولا أسر بأني الملك محمود

وقد أعجبه أن يراه راءٍ في الكرى يلبس تاجا فقال :

رآني في الكرى رجل كأني ... من الذهب اتخذت غشاء رأسي

(١) ذمار : كل ما يلزمك حفظه وحمايته كالحرم والأهل .

قلنسوة خصصت بها نضارا     كهرمز أو كملك أولى خراس
فقلت معبّراً : ذهب ذهابى     وتلك نباهة لى فى اندراسى

ولعل الرائى هو أبو العلاء نفسه قد أظهر له المنام ما أخفاه العقل الباطن من نوازع الكبرياء . أو لعله صاحبٌ خبيث قد استطلع طلعه وعرف شموخ طبعه فرأى المنام حقاً أو لفّقه له ليغنم رضاه .

وكأنه لما فاته التاج وسوس له « عقله الباطن » فى المنام فرأى تلك الرؤيا ، ووسوس له فى اليقظة فقال فى المفاضلة بين تاج الملك وتاج الزاهد :

والتاج تقوى الله لا ما رصعوا     ليكون زينـا للأمير الفاتح

وأمثال هذه الأبيات وعشرات مثلها لاتبدر من رجل يمزح حين يقول : كن فى الدنيا كثيراً أو قليلا ، فاما مليكا أو راهبا .. ثم تدركه الأنفة أن يأكل من رزق غيره مع الرهبانية فيقول :

ويعجبنى فعل الذين ترهبوا     سوى أكلهم كد النفوس الشحائح

كلا .. ذلك رجل قد تغلغلت الأنفة فى أعماق طبعه . فما هى عنده كلمة مجاز أو كلمة مزاح أو شطحة خيال .

تلك مراجع شتى لعـادة السمت أو « أدب اللياقة » فى خلائق أبى العلاء . ومرجع آخر نضيفه إليها ولا نحسبه قليل الأثر فى تكوين تلك العـادة : أنه كان ضعيف البنية ضعيف الخوالج الجسدية ... فلم تغلبه شهوات اللحم والدم ولم يعسر عليه ضبطها فى عنان السمت مدى تلك السنين الطوال ..

على هذه المراجع جميعها قام « أدب اللياقة » فى خلائق أبى العلاء . أو قامت تلك الشيمة التى قلنا إنها لو تغيرت قليلا لخرج أبو العلاء رجلا آخر : مَنْ يقرأه لا يهجس فى خاطره ذكر المعرى المعهود .. ترى هل كان تغييرها من المستطاع ؟ ..

وماذا كان المعرى صانعاً لو قدر على تغييرها ؟؟ .



# عالم السريرة

قلنا فى ختام الفصل السابق إن الخصلة التى لو تغيرت فى أبى العـلاء غيرت معيشته كلها أو غيرت مذهبه فى الحياة كله — هى خصلة الوقار وكراهة السخر والمهانة أو هى خصلة « اللياقة » كما نسميها فى العصر الحديث ..

وقلنا إن هذه الخصلة مردودة فيه إلى مراجع كثيرة ، وهى التربية فى بيت العلم والوجاهة ، والسليقة العربية . وفقد البصر . والكبرياء . وضعف البنية ضعفاً أتاح له أن يكبح نوازع اللحم والدم ويقمع دوافع الشهوات ..

وسألنا : هل كان من المستطاع تغيير هذه الخصلة ؟ وماذا كان المعرى صانعاً لو أنها تغيرت بعض التغيير أو كل التغيير ؟ .

° ° °

وعندنا أن تغييرها كان مستطاعاً كما يستطاع كل تغيير فى عوارض الصفات ..

فان تلك المراجع التى أنشأت فيه حب الوقار ليس من شأنها أن تنزع بصاحبها إلى النسك والزهد فى الحياة إلا إذا اجتمعت فى وقت واحد . أما إذا افترقت ولو بعض الافتراق فليس النسك لصاحبها بلزام . وليس حتماً عليه أن يأنف من نعيم الحياة .

إذ ليس كل من تربى فى بيت من بيوت العلم والدين والوجاهة يصادف عن اللذات والشهوات . أو يعاكف على الصوامع والدور التى يسمها المحابس .. والأمثلة فيما نراه وفيما نقرأه كثيرات ..

وليس كل عربى تمنعه صيانة العرض أن يعـاقر الخمر ويستطيب اللحون . فان أمرأ القيس وطرفة والأعشى عرب فى الصميم من العروبة .

ومجونهم مع ذلك كمجون الشعراء من أبناء الأمم الأخرى فى عهود الجاهلية وعهود الأديان ..

وليس كل ضرير عازفاً عن مواقع الشبهات . فان بشارا قد ولد ضريراً وإنه لأسبق إلى الشبهات من المبصرين .

وليس كل ضعيف البنية معرضاً عن حظوظ الأقوياء والأشداء . إذ ربما كان ضعف البنية سبباً إلى الإفراط فى التماس تلك الحظوظ . لأنه يضعف الإرادة فلا تقوى على كبح سورات الطبع ووساوس الإغراء ...

وكذلك ليس المتكبر مترفعاً أبداً عن الطرب والسرور . لأنه إذا كان بصيراً لم يكن فى طربه وسروره ما يجلب عليه السخر والمهانة . أو يعرضه للتغامز والتقريع بل لعله يرضى كبرياءه أحياناً من طريق غزوات الحب ومظاهر البذخ والثراء ..

* * *

أما إذا اجتمعت هذه الأسباب كلها فمن الصعب أن يفلت الطبع الواحد من أوهاقها(١) ، ومن الصعب أن يوفق بينها جميعاً إلا كما وفق بينها أبو العلاء ، أى باجتناب الدنيا والتزام العزلة والقناعة ..

لكن افتراقها كان ميسوراً لا استحالة فيه ، فلم يكن ضربة لازب أن يصاب أبو العلاء بالجدرى فى طفولته الباكرة ، ولم يكن ضربه لازب إذا أصيب به أن يفقد بصره وأن يعيش بعد ذلك رهن المحبسين . وماذا يبقى من معيشة أبى العلاء أو من فلسفته فى المعيشة إذا لم يكن رهن المحبسين ؟

أكبر الظن فى هذه الحالة أنه كان يجمع بين النواسية والخيامية فى نمط واحد . أو كان يخرج لنا نمطا جديداً يضاف إلى نمط النواسى ونمط الخيامى فى ديوان الآداب الشرقية . ويكون لا ريب نمطا بديعـاً خليقاً بذلك الذهن الوقاد وذلك الطبع الأصيل .

(١) أوهاقها : جمع وهق وهو الحبل وفيه أنشوطة يؤخذ به الدابة .



وفى المعرى جميع العناصر التى تخرج منه ذلك النمط البـديع . ونعنى به النمط الذى يذكرك عمر الخيام أو يذكرك الحسن بن هانىء قبـل أن يذكرك أبا العلاء الذى عهدناه ودرسناه .

عنده الشك فى أخلاق الناس وعقائدهم فهو القائل :

ما فيهم بر ولا ناسـك　　　إلا إلى نفع له يجذب

وهو القائل :

توهمت يا مغرور أنك دين　　　على يمين الله : مالك دين !

وهو القائل :

نحرم فيكم الصهباء صبحا　　　ويشربها على عمد مساء

وهو القائل :

وما يحجون من دين ولا نسك　　　وإنما ذاك إفراط من الأشر(١)

وهو القائل وفيه كل سخرة بخلائق الناس وخلائق نفسه :

عرفتك فاعلم إن ذممت خلائقى　　　ورابك بعضى : أن كلك رائبى !

* * *

وعنده الرغبة فى الحياة والشغف بمتاع الدنيا . وكلامه فى ذلك كثير . ومنه قوله :

تناهبت العيش النفوس بغرة　　　فان كنت تستطيع النهاب فناهب

ومنه قوله :

والمرء ليس بزاهد فى غادة　　　لـكنه يترقب الامكانا

ومنه قوله وهو أصرح مما تقدم :

ولم أعرض عن اللذات إلا　　　لأن خيارها عنى خنسنه(٢)

وعنده الشك فى عقبى النفس وما يستتبعه ذلك الشك من قلة المبالاة والمساواة بين المحامد والمثالب . ولعل أوجز كلامه فى هذا المعنى قوله :

(١) الأشر : البطر .

(٢) خنسنه : خنسه : أخره وأبعده .

وقد زعموا الأفلاك يدركها البلى ... فإن كان حقاً فالنجاسة كالطهر

أما الخمر فلا أستبعد أن الشيخ قد ذاقها فى بعض الأديرة التى كان يغشاها للدرس ومراجعة المذاهب . فإن أوصافه لها أوصاف من لا يقتصر فى العلم بها على السماع .

بل لا أستبعد أنه كان يذوقها من حين إلى حين فى بعض أيام العزلة كما ينم عليه قوله :

فلا تشربنها ما حييت ، وإن تمل ... إلى الغىّ فاشربها بغير نديم

وإنك لتقرأ نهيه الكثير عن الخمر فتلمس فيه نزاعاً شديداً إليها يغالبه ويعاوده فى معظم أيامه كما يؤخذ من قوله :

تمنيت أن الخمر حلت لنشوة ... تجهّلنى كيف اطمأنت بى الحال

أو فى قوله :

أيأتى نبىٌّ يجعل الخمر طلقة ... فتحمل شيئاً من همومى وأحزانى ؟
وهيهات لو حلت لما كنت شاربا ... مخففة فى الحلم كفة ميزانى !

أو من قوله :

لو كانت الخمر حلاً ما سمحت بها ... لنفسىَ الدهر لا سراً ولا علنا

أو من قوله :

لا أشرب الراح أشرى طيب نشوتها ... بالعقل أفضل أنصارى وأعوانى

أو من قوله :

لو كان قدسا(١) ثم هبت ريحها ... بهضابه لم يبق فيه وقار
لو يحمل الشرب الرواسى أوهموا ... أن ليس فوق ظهورهم أوقار

• • •

أو من قوله :

وما قصرت لى أم ليلى بشربها ... حنادسَ أوقات على طيال

(١) اسم جبل .



أو من قوله :

لا ينزلن بانطاكيـة ورع ... كم حلل الدين عقـد للزنانير
بها مدام كذوب التبر تمزجه ... للشاربين وجـوه كالدنانير

أو من قوله :

لقد خدعتنى أم دفر(١) وأصبحت ... مؤيدة من أم ليـلى بسلطان
إذا أخذت قسطا من العقل هذه ... فتلك لهـا فى ضلة المرء قسطان

أو من قوله :

لا أشرب الراح ولو ضُمِّنَتْ ... ذهاب لوعاتى وأحـزانى
مخففـا ميزان حلمى بهـا ... كأننى ما خف مـيزانى !

إلى أضعاف هذه الأقوال وما شاكلها فى اللزوميات خاصة . وهى من بعض الوجوه أشبه الأشياء بمفكراته الشخصية . وهذا عدا ما جاء فى رسـالة الغفران من وصف مجالس الشراب ولذات الشاربين فى الدنيا والآخرة ..

فإن لم يكن فى كل ما تقدم دلالة على أن الشيخ قد ذاق الخمرة وعاد إلى مذاقها بعد لزوم المحبسين ففيه دلالة على اشتهائها ومغالبة نفسه عليها . مغالبة ليس بالهيّن نسيانها وصرفها من ذهنه وهواجس ضميره ..

• • •

ويرجّح الظنّ بنزوع المعرى هذه النزعة بين الخيامية والنواسية انه كان يعيش فى عصر فتنة واضطراب ، وجزع على الأنفس والأعراض ، وتلك عصور يشيع فيها الفساد وتندر فيها العصمة ويكثر فيها اغتنام الفرص والتهافت على اللذات . ولا سيما على ملتقى الطريق بين حضـارة الروم وحضارة العرب وحضارة الفرس ، وكلها فى ذلك العهد حضارات أخذت فى الزوال ولم تستبق من المناعة والتماسك ما يزجر النفوس ويعصم الأخلاق ويحمى شرائع الآداب .

(١) كناية عن الدنيا .

لكن لماذا نقول الخيامية والنواسية ونفرق بين الطريقين وكلا الرجلين — الخيام وأبو نواس — معاقر كأس مقبلٌ على متعة ، مستخفٌ بالذم والثناء ؟ ..

نقول ذلك لأنهما على اتفاقهما فى العمل مختلفان فى أسبابه ودواعيه وغاياته.

فالخيام يشرب وينعم لأنه عالج مشكلات الوجود فاستعصى عليه حلها فقنع بالساعة التى هو فيها وعمد إلى الكأس يغرق فيها شكوكه وأسفه على بطلان الحياة وعاقبة الحياة .

أما أبو نواس فلا شكوك عنده ولا مشكلات . وإنما هو شارب خمر لأنه يشتهيها ويتصدى لعقاب الآخرة فى سبيلها ، فالآخرة عنده حقيقة مفروغ منها وليست قضية فى طريق الحل والجلاء .. كما كانت فى مذهب عمر الخيام ..

أما أبو العلاء فهو قريب من أبى نواس فى الثقافة العربية وقريب من الخيام فى التفكير والبحث عن أصول الأشياء . فهو لا يكون كهذا ولا كذاك حين يستسلم لمتاع الحياة ، ولكنه يكون نمطا وحده يأخذ من كليهما بما هو قريب إليه . وقد يترجم هذا النمط بعض الترجمة بقوله :

السيف والرمح قد أودى زمانهما     فهل لكفك فى عود ومضراب

* * *

إلا أننا نسأل ويحق لنا السؤال : هل كان حتما لزاما على المعرى إذا هو سلم من الجدرى وعاش بصيراً بين أهل زمانه أن يدرس الدراسة التى تشككه وتدفع به إلى البحث فى أصول الأشياء ؟ ألم يكن من الجائز أن استغراقه فى الدراسة إنما كان نتيجة لفقد بصره وانصرافه عن الدراسات الأخرى التى يشتغل بها طلاب المناصب والمساعى الدنيوية ؟ ألم يكن من الجائز أن يدرس — وهو طفل بصير — تلك الدروس التى ترشحه للقضاء كما رشحت بعض أهله من قبله ؟ ألم يكن من الجائز إذا علّمه أهله



ليرشحوه لوظيفة القضاء أن يكتفى بدروسه الفقهية ولا يسترسل فى دروس الحكمة والفلسفة وشكوك الأديان ؟ ..

كل ذلك مما يجوز ، وقد ذكر هو المراتب والتطلع إليها فى مواضع من شعره ، وذكر الفتيا فقال :

قلّدتنى الفتيا فتوّجنى غدا     تاجا باعفائى من التقليد

وقال يخاطب أبناء بلده :

يا قوم لو كنت أميرا لكم     ذممتم فى الغيب ذات الأمير

* * *

فإذا قنع الطفل أبو العلاء بدروس الوظائف والمساعى الدنيوية فربما ولى القضاء وعاش عيشة القضاة فى زمانه فلا يطيل الدرس ولا يتشعب فى مناحيه بعيداً من فقه الدين وفتاوى القضايا الشرعية ، وإذا تمادى به البحث مرة ودعاه إلى ذلك بعض ما يسمع ويرى من حوله فما هى إلا خطرة عارضة ، لا تلبث أن تذهب كما جاءت أو تنطوى فى خبايا النفس مزويةً عن الأسماع والأبصار .

لقد كان إذن يجد الوظيفة والبصر ولكنه يعيش بعد موته فى ظلام التاريخ ..

لقد كان يعيش إذن جاهلا حقيقة نفسه ويموت مجهولا بين عارفيه منذ قضى نحبه إلى أن يشاء الله .

# أبو العلاء هو أبو العلاء

قال الرسول :

ألم يجمع شيخنا العظيم رأياً فيما اختار من تلك الشخوص . ؟

قال أبو العلاء :

شيخنا العظيم قد اختار وفرغ من اختياره

قال الرسول :

أفيأذن مولاى أن أسأله عما اختار منها ؟

قال أبو العلاء :

بل هو يسألك ماذا أنت مختارٌ له من تلك الشخوص ، فلعله يهتدى منك بهدى فيما يؤثره لنفسه ، من شكول حياته وأحوال وجوده .

قال الرسول :

عفوك اللهم وغفرانك ! أفمثلى يهدى أبا العـلاء ؟ وفيم أهديه تعاليت ربى وتباركت ؟ فيما يأخذ من شأنه وفيما يدع ، وفيما يؤثر لنفسه وفيما يأبى ! ماذا أسمـع منك مولاى ؟ وهل بلغ من قدرى أن أصبح هـدفاً لسخرك إن كنت ساخراً ، وغرضاً لتهكم منك إن طاب لك أن ترجع إلى تهكمك القديم ؟ . .

قال أبو العـلاء :

ولا كل هذا يا بنى ... ما أنا بساخر منك ولا متهكم . وإنما يعجز الإنسان غاية العجز حين يختار لنفسه ، ويقدر غاية القدرة حين يختار لغيره ، وليس صاحب الحكمة بدعا فى هذه السنة التى شملت أبناء آدم وحواء ، بل لعل الحيرة أعظم والتردد ألزم حين يختار الحكيم وينظر فى مختلف الشئون ، قياسا على كثرة ما يرى وكثرة ما يستوعب من المزايا والنقائص ، وكثرة ما يعلم للمسألة الواحدة من وجوه وأطوار . فلا جرم

تكون أهلا للسؤال الذى سألتك وأنا أحوج إلى جوابه منك إلى جوابى ، فإنما أنظر إلى شخوصى كما ينظر الأب إلى أبنائه فلا أدرى من منهم الأثير الراجح ومن منهم المزوىُّ المرجوح . وأنا بعدُ صاحب الاختيار ومن يقع عليه الاختيار . وأنا بعد الشاهد والمشهود عليه . فما بالك تستغرب منى أن آسى أى خاطر يخطر لك أو ظن يحوم فى خلدك ! .. قل يا بنى ولا حرج عليك من حكمة حكيمك العظيم كما تدعوه . ما أنت بجاهل وما أنا بعليم :

وما العلماء والجهال إلا قريب حين تنظر من قريب

قال الرسول وهو مأخوذ :

ذلك علم أستفيده منك إذ أنت تنكر العلم يا مولاى على نفسك . وقصاراى أن أسألك عن شخص شخص من شخوصك التى تعرض عليك ، وأن تقول لى ما تحمده منها وما ليس عندك بحميد ، وأنا الرابح بما أسمع . وإن لم يبلغ من رأيى أن يضاهى رأى الشيخ فيما يريده وما يأباه ..

قال أبو العلاء :

قل على بركة الله ..

قال الرسول :

ذلك قاضى قضاة المعرة أول تلك الشخوص . أتمثله سيداً جليلا ينظر إلى الدنيا وتنظر الدنيا إليه . ويتمم بنصيب من الحياة يعلن منه ما يعلن ويبطن منه ما يبطن . ويسأله الناس فى العلم والدين ، ويقصده القاصدون فيما يشكل عليهم من قضايا الفكر ، وقضايا المصالح والحاجات ...

ومضى الرسول يطنب فى مآثر قاضى القضاة وهو ينظر إلى وجه أبى العلاء فيراه يبتسم ويصغى فى غير قليل من الرحمة والحدب ، وغير قليل من العجب والاستجهال . ويتأنى الرسول فى كلامه ويكفكف بعض الشىء من أطنابه وغلوائه ، فيعمد الشيخ إلى الكلام كمن لا ينشط إليه . ويقول للرسول سائلا :



فى أقاليم الهند والصين ألوف وألوف من أجيال البشر الأحياء فى هذا الزمان ، أفتراك لو عدمت الحياة أحسب نفسى حيا لأنهم أحياء . وأزعم أنى أعيش لأنهم يعيشون ؟

قال الرسول :

كلا يا مولاى . فإن لهم حياتهم وللشيخ حياته . ولهم أعمارهم المعدودة وللشيخ عمره المعدود ..

قال شيخ المعرة :

فتح الله عليك . فما أنا وذلك القاضى الذى وصفت ؟ وما نصيبى من الحياة أن عاش هو وسمى نفسه أبا العلاء ؟ هو رجل من أهل الصين ما سمعنا به فى الأولين ! .

إنما أبو العلاء أبو العلاء حين يمعن فى أغوار ضميره فيلمح هنالك هواجس قلبه وشكوك عقله ، ومادة علمه واختباره وآثار نعمته وحرمانه ، وما حصّل أو ضيع من أحلامه وأشجانه . وغاية ما ينتهى من ظنه أو يقينه . فما أنا وقاضى قضاتك يا بنى ؟ ذره وما اختاره يعيش كما اختار له أمراؤه وطلاب عدله وانصافه . فإن الصلة بينى وبينه كما قلت لك لكالصلة بينى وبين ألوف ممن عاشوا أو يعيشون فى أرجاء الهند والصين . فما اجتاز صاحبنا من حقيقة أبى العلاء عتبة الدار . ولا صعد منها إلى ذروة ولا هبط إلى قرار ..

قال الرسول :

فما قول شيخنا أفاده الله فى الشاعر النواسى يحيا حياته وينعم نعيمه ، ويرتع فى لذات العيش كما رتع . وينظم الشعر كما نظم . ولا يحرم الشهرة بعد زمانه ، ولا الحظوة بين معاصريه وأقرانه .

قال أبو العلاء متهانفا مستنكرها :

لو سرنى أن أعيش عيشه لسرنى أن أخلد خلوده وأن أشتهر اشتهاره فى زمانه وبعد زمانه : ذاك نديم يابنى وتلك غاية مُرتقاه . فكيف تراتى

أوثر مكان النديم ومن فوقه مكان من ينادمه ويرجو مسرته ويبتغى صلاته وعطاياه ؟ ..

رحم الله ابن هانيء . ما اقترب من الأفق إلا حين قال :

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشّفت     له عن عـــدو فى ثياب صديق

ثم أبى أن يمتحنها وامتحنتها أنا فى كل يوم ، وشرب من يدها الخمر لذة للشاربين وكرهت أنا أن أقبل الضيافة من عدو بغيض ، ولو لقيته لسألته : ما بالك لم تمتحنها يرحمك الله وتركتها محنـــة لك لا تألوك امتحانا فى ليل ولا نهار ؟ .

خذه يا بنى إلى جانب قاضيك فما كان لى من أرب فى هذا ولا ذاك .

• • •

فوجم الرسول التلميذ هنيهة ، ثم قال وهو يقدم ويحجم : هـل أسأل الشيخ عن الفارسى عمر الخيام ؟ .

فهش أبو العلاء وقال نعم تسأل ، فماذا تخالنى مجيبا أن سألت عنه ؟ .

قال التلميذ : أحسب أنى فطنت لاختيار أستاذنا من تلك الشخوص التى عرضت عليه ..

إن أستاذنا ليختار الفيلسوف الفارسى وأنه ليرضى عن بحثه وزهده ، وأنه ليقنع كما قنع برغيفه وقدحه وحبيبه ، وأنه لينظر بعـــد ذلك فى السماوات والأرضين بعلم المنجم وخبرة الحكيم ، وانه ليتبوأ من ســـيرة الخلف بعد زمانه مكان الهداية والتعليم ، لامكان السمير والنديم ! .

فبدا على وجه الحكيم الضرير قطوب يسير ، ولكنـــه قطوب الروية والمراجعة لا قطوب الكدر والانقباض . وهمس بين شفتيه كأنه فى حديث نجوى :

أترانى أكون نسخة منقولة من أحد كائنا ما كان ؟ .



ثم جهر قائلا :

كلا يا بنى ! لقد كنت أختاره لو أنى خيرت فيه قبل ميلادى وميلاده . أما اليوم فمالى فى هذا الشبه من أرب : رضى الله عنه فهو أقرب من آثرت وأصعب من أبيت ..

ثم عاد يقول :

لئن حظى بلذة التعاطى لما حظى بقوة الامتناع .. ولئن سكر بخمر الدعة لما سكر بخمر الأنفة ، ولئن جرب اتباع الدنيا خطوة واحدة لما جرب الإعراض عنها خطوات : له طريق ولى طريق ، وربما التقينا فى بعض الطريق ! ..

ثم صاح الشيخ بتلميذه ورسول القوم إليه :

ما بالك يا بنى ترضى لى كل صورة إلا الصـــورة التى رضيتنى من أجلها ؟ .

قال التلميذ : تعنى يا مولاى صورة أبى العلاء ؟ .

قال الشيخ : نعم . إياها أعنى ولا أعنى سواها

فعجب التلميذ عجباً لم يدر له متقدا ولا منصرفا : أيقضى الشيخ حياته فى التبرم والإنكار ثم لا يختـــار حين يختار إلا ما تبرم به وأغرق فى إنكاره ؟ ..

هذا والله هو العجب العاجب والحيرة بعد الحيرة فى قضاء الناس مع الأقدار وقضاء الأقدار مع الناس ..

وكأنما أدرك الشيخ ما يهجس به ضمير التلميذ فقال له : تراه عجيبا ؟ أليس كذلك ؟ ..

قال التلميذ : لا أكتمك عجبى فأنت به أعلم . وما أدرى كيف شكوت الدنيا ثم كيف تختار اليوم ما كنت تشكوه ؟ .

قال : أضرب لك مثلا ، فانما بالأمثال تنجلى المشكلات والمشابهات .

هبك خرجت إلى العالم العريض الرحيب فجعلت لا ترى مزية ولا حسناً ولا فضيلة فى أحد من الناس إلا تمنيت ذلك لنفسك : هبك تمنيت من هذا عينيه ومن هذا أنفه ومن هذا قوامه ومن هذا فكره ومن هذا عافيته ومن هذا أرزاقه وأمواله ، ومن هذا ماضيه ، ومن هذا حاضره ومستقبله ، ومن هذا ملكة الشعر أو ملكة الغناء أو ملكة الحكم أو ملكة التدبير ..

وهبك جمعت كل هذا فى شخصك فأين تكون أنت بين جميع هذه الشخوص ؟ ..

لا تجب فانى مغنيك يابنى عن الجواب : إنك يومئذ لا تكون

إنك تكون أنف زيد وعين بكر ولون خالد وسطوة فلان ومال آخرين ولكنك أنت لن تكون وأنت أنت الذى يعنيك أن تكون جميع هؤلاء ، وإذا كنت جميع هؤلاء فلا أنت ولا هؤلاء كائنون .

قال التلميذ : ألا يتسنى لى أن أحتفظ بأساس وجوهر ثم أتمنى النوافل والعروض ؟ ..

قال الشيخ : ذلك خطؤكم القديم . فما من عرض إلا وهو داخل فى صميم الجوهر ، وما من شرفة فى أعلى البناء إلا وللأساس منها عماد ، وإن بصرى الذى فقدته لجزء من تكوينى لا أنزعه إلا انتزعت كلى معه فلم يبق لى ما أختار به ولا ما أختاره .. ولقد يكون من عوارض الحيـاة مال يذهب ومال يجيء ، ودار تسكنها هنا ودار تسكنها هنـاك ، ولكنك إذا كسبت المال وفيك طبع الفقير فكأنما وقع الدرهم فى يمين غير يمينك ، وإذا سكنت الدار وخلفت فيها ذكريات شبابك فأنت ساكنها وإن تحولت منها إلى العدوة الأخرى ، وإذا وجدت مرة فلن توجـد إلا على صورة واحدة فى هذه المرة .. وكل ما تختاره بعد ذلك فإنما هو من وحى تلك الصورة ، ليس منه محيص ولا محيد .

كلا يابنى .. لن يكون أبو العـلاء إلا أبا العـلاء ! !



# بساط الريح

قال الشيخ : الحمد لله استطعنا وفعلنا ...

قال الرسول : إن الفضول ذميم فى كل شىء يا مولاى إلا فى طلب العلم والسؤال عنه . أفيأذن لى أستاذنا فى سؤال ؟ .

قال الشيخ : أحسبك تسألنى عما استطعت وفعلت

قال الرسول : نعم . هو ذاك ! .

فصمت الشيخ قليـلا كمن يستحضر نغما بعيـداً أو كلاماً منسيا ثم أنشد :

وماء بلادى كان أنجع مشربا ... ولو أن ماء الكرخ صهباء جريال
فياوطنى أن فاتنى بك سابق ... من الدهر ، فلينعم لساكنك البال
فان أستطع فى الحشر آتك زائراً ... وهيهات لى يوم القيامة أشغال

هذا الذى استطعناه وفعلناه : عودة إلى الوطن وزيارة للمعرة فى هذا الحشر الذى حشرتمونا إليه .

فأخذت الرسول شيطنة التلاميذ فى كل سن وفى كل مقام . وراح يقول لأبى العلاء : ومع هذا أنت القائل :

فيـاليتنى هامـد لا أقـو ... م. إذا نهضوا ينفضون اللمم(1)

فأدار الشيخ رأسه ناحية وزمّ شفتيه قليلا ثم أجابه : نعم ! ليتنى هامد لا أقوم .. أما وقد قمت فأى مكان أحق بالحنين من :

بلاد بها نيطت(2) علىّ تمائمى(3) ... وأول أرض مس جلدى ترابها

(1) اللمم : صغار الذنوب . وطرف من الجنون يلم بالإنسان .
(2) نيطت : علقت .
(3) تمائمى : التميمة : خرزات كان الأعراب يعلقونها على أولادهم لنفى العين .

بل أصبح جسمى من ترابها . واختلط فوق صعيدها وبين أحشائها ... هذه هى المعرة ! .. نعم هذه هى المعرة عرفتها وما كدت أعرف غيرها .. فالحمد لله على البعث فيها ..

فهجم التلميذ بسؤال جديد . وعول على الإكثار من السؤال . إذ لا محيص من مساءلة الشيخ وإن ضجر بعض الأحيان ... فربما كان ضجر الإجابة خيراً من ضجر السكوت سنوات . ريثما يعقد الاحتفال ويجتمع المقبول إلى المعرة لتحية حكيمها فى ذكراه .

قال التلميذ فى سؤاله الجديد : أليس من عجب هذا الحب للمعرة ممن عاف الدنيا بأسرها ؟ ..

فأجاب الشيخ فى غير ضجر ولا تأفف . كأنه كان يتوقع سؤالا كهذا من تلميذه : « ما أكثر عجب الناس مما لا عجب فيه ! إنما يحب الوطن الصغير من يعاف الوطن الكبير . ومن كره الدنيا كره التقلب فيها وكره السعى وراءها فى نواحيها .. فالى أى منقلب يصير غير المكان الذى لا عناء فيه يتجشمه . ولا جديد فيه يفجأه بما يسوءه . ولا يزال فيه قريباً من عهد صباه قبل أن يذوق مرارة العيش ويمتحن بلواه ؟ وما أحرى من اتخذ فى المعرة محبسا لا يفارقه أن يتخذ فى الدنيا بأسرها محبسا هو هذه القرية ! لو فعل غير ذلك لعجبتم منه ، فاعجبوا واخلقوا العجائب فلعلكم تستروحون الحياة ببعض ما تعجبون له . ولعلكم أطفال القدر يضحك منكم حين تسألون ثم يضحك منكم حين تقنعون بالجواب . أو تحسبون إنكم فى غنى عن السؤال ؟ يابنى سل مابدالك . فقد سألتُ الغيب كثيرا وسألنى الناس كثيراً . وعالجت السؤال فى الدنيا والآخرة . فلا أدرى ماذا أصنع إن لم أكن سائلا أو مجيباً لسائل . وما أخالك ساكتا لو دعوتك إلى السكوت . فتكلم مأذونا فأنتم أزهد الخلق فى مباح وأرغبهم فى ممنوع . وقد يرضى الإذن لك أضعاف ما يرضى الإعراض عنك . فلو صدقنى من قبلك حين قلت لهم إنى أجهل ما يجهلون لطمعت فى تصديقك إياى حين ألوذ بالصمت أو أقر بالغباء ..



واضطرب الرسول لا يدرى أهــذا ترخيص فى السؤال أم نهى عنه ، وانقباض من الشيخ أم تبسط وانطلاق .. وإنه لكذلك إذ عاد الشيخ يتكلم كأنما قد سرت فى نفسه حرارة الثورة على الناس . وإنها لحرارة ترضى صاحبها عمن يثيرها ساعة تسخطه عليه . كما يعدو الجواد فزعا فيشعر بنشاط العدو وجفلة الفزع فى آن . وأبو العلاء ثائر يرضيه الإعراب عن ثورة نفسه ولا يرضيه طول الكتمان لطباعه . فعاد يقول :

« ألا تنبئنى يا بنى : ماذا تظنون حين تسألون رجلا متهماً بالعلم فيعجز عن الجواب أو يأباه ؟ أتحسبون الغيب سلطاناً يحتبى بأسراره الحاشيــة المقربين ؟ أتحسبون من يصحبه مطلعاً لا محالة على كل أمره فلا يخفى شيئاً إلا اتهمتموه بالضن أو الدهاء والروغان ؟ إن كان هذا ما تحسبون يابنى فالغيب ليس بسلطان ، والعلماء ليسوا بحاشية سلطان . وأحرى أن يكون العالم كالمدلج(١) فى الظلام يحمل مصباحه على قدر ضيائه فهو يرى ما هنالك ولكنه لن يرى ما ليس هناك .. فان سألتم فاســألوا عما يجوز عليه أو ما يجوز وجوده حيث يراه المدلج وحيث يقع عليه شعاع المصباح . أما ما وراء ذلك فالعلماء والجهلاء فيه كما قلت لكم قريب من قريب » .

فتنفس التلميذ الصعداء ، وعلم أنها غضبة ليست من غضبات الجفاء والنقمة ، وقال وهو يتلعثم : لقد علمت ما لم أسأل عنه . فما أسعدنى بقربك أيها الحكيم سائلا وغير سائل ، وسترى أيها الحــكيم أنى لن أسألك الا عما هو فى علمك ولن أطلب منك إلا ما هو عندك . فهل أحسب الشيخ آذنا فى هذه الساعة بسؤال ، أو أعفيه حتى يأذن ويستريح إلى الجواب ؟ .

فتبسم أبو العــلاء وقد راجع نفسه واسترجع حلمه وأناته ، والتفت إلى تلميذه ملاطفا وهو يقول : إن كنت قد تعودت منى ما رأيت وفهمت أنى لا أغضب منك ولا عليك فنحن على وفاق . ولك إذن أن تسأل ولى أن أجيبك أو أغضب كما غضبت منذ هنيهة ، ولا حرج علينا معاً فى هذا ولا فى ذاك ..

---

(١) المدلج : أدلج القوم سروا من أول الليل .

قال التلميذ : جزاك الله خيراً يا مولاى فى غضبك ورضاك ، فما قول الأستاذ فى اقتراح لا يشق عليه أن يجيبه ؟ ما قوله فى رحلة بين آفاق الأرض ثم نعود إلى قريته العزيزة فى موعد الوفود ؟ .

فاعتدل أبو العــلاء فى مجلسه وهو يقول : أو تدعونى إلى الرحلة وما فرغنا بعد من الكلام على الوطن والقبوع فيه ؟ إنك لا تضيع فرصتك يابنى . وإنك لسريع الهجوم ..

فلم يحجم التلميذ ولم يتردد . بل راح يقول : إن يومك يا مولاى غير أمسك . وان المعرة اليوم لعلى مسافة ساعات من بغداد . وإن الأرض كلها لتطوى الآن فى أيام معدودات . فلو لم يكن فى السفر إلا تجربة هذه العجيبة المستحدثة فى زماننا لكان ذلك شفيعى فى اقتراحه وشفيع الشيخ حفظه الله فى قبوله .

فطال إنصات الشيخ كالمستريب المتوجس . وخطر له أن الفتى يغرر به ولا يصدقه المقال ، ثم سأل فى صوت خفيض :

ماذا تقول ؟ المعرة على مسيرة ساعات من بغداد ! والأرض كلها تطوى فى أيام معدودات !؟ هل عادت المعجزات وهل رجع بساط الريح ؟ هل أصدقك والعقل أولى بتصديق ؟ .

قال التلميذ : ما على الشيخ إلا أن يقبل الساعة وسيصدقنى ويصدق العقل معاً بعد ساعات .

قال الشيخ : قبلت ، فأين بساط الريح ؟ وأين سليمان بن داود ؟ .

ثم مضى التلميذ يشرح للشيخ ما يريده ، والشيخ مقبل عليه ظاهر العجب من كلامه ، حتى فرغ من شرحه وهما على اتفاق أن يجوبا بقاع الأرض فى مشرقها ومغربها ، وأن يشهدا الأجيال التى لم يشهدها أبو العلاء ولم يسمع بخبرها ، وأن يتعلم كلاهما من صاحبه ما عنــده من علم . ويتخذه دليلا له فيما يجهل .. فلا حرج من سؤال ولا حرج من جواب ..

وسنسمع ، بعد ، ما قال أبو العلاء وما قيل له فى كل مكان وصلا إليه



# حكم السيف

ألم أقل لك يا بنى أننى لا أملك أن أرى رأياً جديداً ولا أن أحيا حياة جديدة ؟ ..

قصارى ما يملك المرء فى هذه الدنيا عمر واحد يعلم فيه كل ما قُدر له من العلم ويعمل فيه كل ما وسعه من العمل ؟ ويختبر فيه اختباره . ويستوفى منه أحواله وأطواره . فإذا قضاه فتلك حصته من الزمن لا حصة له بعدها . ولا نصيب له من أعمار الدنيا وراءها .

قال الرسول : والشهرة يا أستاذنا ، أليست هى عمرا متجدداً وحصة مزدادة ؟ ..

قال أبو العلاء : كلا يا بنى الشهرة استطالة لعمر الشهير : فيها تكرار له وليس فيها تجديد لشىء منه .. ختمت حصتى من الوقت فلا تنتظر منى قولا غير ما قلت ، أو رأياً غير ما رأيت .. ولو أطلقتنى كل يوم من دنياك هذه على جديد ..

° ° °

فأحس الرسول شيئاً من خيبة الرجاء ... أو لا يسمع من أبى العــلاء كلمة فيها معنى من المعانى غير ما سطرته الأوراق وفرغ منه الحافظون والشراح ؟! لقد كان يحسب أنه ظافر بأبى علاء جديد ، أو بطبعة منقحة من أبى العلاء القديم . فإذا به يسمع مرة بعد مرة أن أبا العلاء هو أبو العلاء . وأن حجاب الزمن قد هبط بعده فلا منفذ من ورائه إلى علم غير ذلك العلم . ولا إلى حكمة غير تلك الحكمة . وأوشك أن يقتضب الرحــلة لولا أنه استدرك وتدبر . فعلم أن مشاهدة الدنيا فى صورة علائية أمر يستحق النظر ومعرفة تستحق العرفان فانطلق يقول :

إذن يا مولاى أنا أعلم رأيك فى هذه الحكومات العسكرية التى تركنا

بلادها . أو هذه الأمم التي يجرون على وتيرة لا يشذون عنها ونظام لا يهاودون فيه .. أنت تحمدها بعض الحمد لأنك تقول :

واخش الملوك وياسرها بطاعتها          فالملك للأرض مثل الماطر الساقي (١)
أن يظلموا فلهم نفع يعاش به          وكم حموك برجّل أو بفرسان
وهل حلت قبلُ من جور ومظلمة          أرباب فارس أو أرباب غسان

* * *

وهذه الحكومات المجندة تحمى من الفوضى ولهـا نفع يعاش به في أزمان القلاقل . وهى تزعم ألا حرية للناس في قديم من الزمن أو حديث . ففى كل حكومة جور ومظلمة . والحكم هـكذا يكون . أو لا فهو فتنة وظلم مكنون ..

فأصغى أبو العلاء طويلا . ثم قال : ولكنى كما قلت هذا قلت كذاك :

ومن شر البرية رب مُلْك          يريد رعيةً أن يسجدوا له !

وهؤلاء الحاكمون يقولون إنهم معصومون وإنهم لا يحاسبون . وإنهم أرباب يدن لها بطاعة الساجدين الراكعين . فما أحمق هذا وما أحراه ألا يكون بين أناس يعقلون ..

قال الرسول :

الحق ما تقول مولاى . لولا أن الرعية تحب هؤلاء الحاكمين ولا تطيعهم إلا وهى راضية بما تطيع .

فلم يزد أبو العلاء على أن أعاد بيته القديم :

تاروا باطلا وجاءوا صارما          وقالوا صدقنا . فقلنا نعم

* * *

فعاد تلميذه يحاوره وكأنه ذو هوى في تعظيم مذاهب الحكم عند هؤلاء العسكريين . وقال فيما قال :

(١) الساقى : المستقى من البئر .



إن هؤلاء القوم لا يخضعون على كره منهم . ولكنهم يخضعون لأنهم يؤمنون إيمان الحاكمين ويفكرون تفكيرهم ويريدون مرادهم ويفرحون بعظمتهم كأنها عظمة لهم فيها نصيب . وكأنهم شركاء في السيادة حين يخضعون لأولئك السادة .

قال أبو العلاء :

وما أعجبتنى لابن آدم شيمة          على كل حال من مسود وسائد

ذلك أدهى وأمر . وليتهم فكروا وخالفوا وخضعوا مرغمين . فذلك أكرم لعقل الإنسان وأدنى إلى الرجاء في الخلاص . أما أن يسلب الإنسان الفكر حتى لا يفكر إلا بأمر حاكميه وعلى وفاق الهوى من رؤسائه . فذلك آلة من الآلات وحيوان من العجماوات . وليس بآدمى له عقل ، والعقل إمام للآدميين أولى بالاتباع من كل إمام .

* * *

قال أبو العلاء ذلك وزوى وجهه كأنه قطع القول وحسم الجدل . وقال مالا رجعة فيه ولا مزيد عليه .

إلا أن التلميذ قد طاب له أن يسترسل في النقاش والسؤال فانثنى يقول : أو لا تغفر الطاعة من الرعية حتى لو أفلح الرعاة في سياسة الأمور وشاهد الناس فلاحهم آنة بعد أخرى . فعلموا أنهم راشدون وأنهم لا يخطئون . وإن خطأهم آمن في عقباه من خطأ الكثيرين ؟ .

فسأل أبو العلاء : من القائل :

يسوسون الأمور بغير عقل          وينفذ أمرهم فيقال ساسة !

فأجاب التلميذ : كيف ؟ إنك أنت قائل هذا يا مولاى ! .

قال أبو العلاء : ذلك فحوى كل جواب على كل سؤال من قبيل ما سألت ... فلا تنظر يا بنى إلى فلاح هؤلاء الساسة حين ينفذ أمرهم ويستقر سلطانهم وتمضى مشيئتهم . بل انظر إليهم حين يفشلون وحين

يريدون فلا يقدرون .. انظر إليهم يومئذ تعلم أنهم يخطئون كما يخطىء سائر الناس وأكثر مما يخطىء سائر الناس ، بل تعلم أن الناس يرون لهم من الخطأ يومئذ أكثر مما صنعوه وأكثر مما يستطيعونه أو استطاعوه . ولا تنسَ أبداً قول الحكيم القديم :

والناس من يلق خيراً قائلون له ... ما يشتهى ولأم المخطىء الهبل(١)

* * *

واذكر يا بنى أن هؤلاء الجيوش المجندين يتعلمون الجبن حين يتعلمون ما تحسبه شجاعة ... وإن أشجعهم لن يجرؤ على كلمة يغضب بها سيده وصاحب أمره .. وما بقى بعد ذلك من إقدام على القتال أو الشجار ، فهو إقدام اضطرار ، أو إقدام مخمور حميا(٢) الضجيج والفخار ..

وما أبرىء نفسى يا بنى . لقد عرفت هذا الجبن وقلت فيه :

لجأت إلى السكوت من التلاحى(٣) ... كما لجأ الجبان إلى الفرار
وبجمع منىّ الشفتين صمتى ... وأخل فى المحافل بافترارى

هؤلاء كلهم يا بنى فارون من المنطق والكلام ، جبناء يهربون من الميدان إلى الصمت الذى تدعوه طاعة أو تدعوه شجاعة ، وما هو من الطاعة والشجاعة إلا كالرجل وصورته فى المرآة .

* * *

قال التلميذ : وإجمال ذلك كله فى كلمة واحدة يا مولاى

قال أبو العلاء : إجمال ذلك كله يا بنى فى بيت واحد . وهو :

ساس الأنام شياطين مسلطة ... فى كل أرض من الوالين شيطان

* * *

وانفض بذلك الجدال بين الشيخ وتلميذه . وهما قافلان من بلاد الحاكمين العسكريين ..

(١) الهبل : الثكل .
(٢) حميا : شدة الغضب وأوله . ودبيب الشراب .
(٣) التلاحى : تلاحى القوم : تلاوموا وتشاتموا .



# المستشرقون

هؤلاء الذين استغربت أمرهم يا مولاى . هم من سميناهم نحن بالمستشرقين ! وهم أناس لم يسمع بهم الأستاذ لأنهم نشأوا أول نشأتهم فى عصره . فكان أقدمهم يتعلم العربية والحكمة على عرب المغرب يوم كان الأستاذ يملى دروسه القيمة فى المعرة قبل عشرة قرون ، وكانوا قسيسين ورهباناً يدرسون علوم العرب ليفقهوا أسرار القرآن ويستعدوا لها بالحجة والبرهان ، ثم شاع أمر الدولة المسيحية وأمر الخلاف على الأناجيل بين حبرها الأعظم ومن خرجوا عليه واعتزلوه .. فمن ثم كثرت طوائفهم فى بلاد الجرمان ولا يزالون أكثر ما يكونون بين هؤلاء القوم . ولا سيما وهم قوم مشغوفون باللغات والبحث فى الأصول واللهجات . فهذا علة ما استغربه الأستاذ من شيوع الاستعراب هنا حيث نحن الآن مقيمون ، وأنهم من أجل هذا يحومون حول هذا الورد ويغتنمون هذه السانحة ، ولا يريدون أن يعبر بهم حكيم المعرة دون أن يوسعوه حفاوة وسؤالا ويتخذوا من كلامه بياناً يعتصمون به ودعاية يدعون إليها . فان شاء الأستاذ أن يصابرهم ويستقصى خبرهم فله الرأى الأعلى فيما يشاء ... » .

ذلك كان حديث التلميذ لأستاذه بعد رحلة ليست بالقصيرة قضياها فى بلاد الجرمان ، ولقيا فيها فئات من المستشرقين سمعوا برهين المحبسين فزاروه واستزاروه ، وسألوه وأجابوه ، وعجب أبو العلاء من شأنهم فى بلاد الغرب فسأل تلميذه عنهم على سبيل الاستطلاع أو على سبيل القصاص ، لكثرة ما أطال عليه من سؤال ، وكثرة ما التمس عنده من فائدة ، وكثرة ما كلفه من تجوال .

فلما أنبأه التلميذ نبأهم قال أبو العلاء :

استعجم العرب فى الموامى(١) ... بعدك واستعرب النبيط

(١) الموامى : جمع مومأة وهى الفلاة .

ثم قال :

أين امرؤ القيس والعـــذارى　　　إذ مال من تحته الغبيط (١)

وجعل يردد : أين ؟ أين ؟ .

ثم عاد يقول : هيهات ! هيهات !

هذه فئة عهدنا لها أشباها بين رهبان زماننا ، يدرسون العلم دراسة رهبان ولا يزالون رهباناً فى كل ما يدرسون . فهم يحجون إلى العلم من طريق الدين ، وقلما يعرفون العربية إلا بلسان أعجم ونفوس أشد عجمة ، وأقربهم إلى البصر بها من كان للعلم قصده وكانت له فى لغة قومه قدم ، وهم جامعون ومحيطون ، دأبهم كدأب كل محيط يقف عند الأطراف ولا ينفذ منها إلى القلب ، ولهم على ذلك ما استحقوا من جزاء . وثناء .

* * *

ثم قال : ومن هؤلاء الذين تسألنى أو تأمرنى أن ألقاهم الساعة ؟ .

قال التلميذ : أستغفر الله يا مولاى ، فالأمر والرأى لك ، وإنما هو اقتراح أو رجاء ، وأنت ما ترضاه من قبول أو إباء ..

هؤلاء الصحفيون يسألون ، وقد عرفت طريقتهم فى السؤال ، فإن أذنت لقيتهم جميعاً مرة واحدة وأفضيت لهم بخبر ما هم مستخبرون ، فلا نجاة منهم قبل أن نرحل من هذه الديار

فاستسلم أبو العلاء ، وأومأ قائلا : على بهم مجتمعين ! فما أتمها حتى كان واحد منهم على الباب ، وكان يتلو خطاباً قد استظهره وتصنع لالقائه . وجاء منه بعد كلام طويل :

« اننا نستقبل منك فى بلاد الجرمان رجلا من أهل الشمال وإن كان مولده فى الجنوب ، وعقلا من عقول الآريين وإن كان منسوباً إلى الساميين . وشاهدا جديداً على صدق علم الأجناس الذى كشف لنا حقيقة

(١) الغبيط : رحل للنساء يشد عليه الهودج .



النبوغ ودخيلة المزايا والأخلاق بين الشعوب . فلا فضل ولا عبقرية ولا ارتقاء فى الآداب والفنون ، ولا فى العقائد والأخلاق إلا أن يكون مردها جميعاً إلى أبناء الشمال ، وإن خفيت مصادر النسب واختلفت مواقع الميلاد ..

ولو لم تكن أيها الرجل العظيم من سلالة الآريين لما اتصل الروح بينك وبين الهند فرأيت ما رآه البوذيون وحرمت ما يحرمون ، وأبحت ما يبيحون . فأنت الناهى عن أكل الحيوان وجناه حيث تقول :

تق الله حتى فى جنى النحل شرته　　　فما جمعت إلا لأنفسها النحل

وأنت الناصح باحراق الموتى وإن عجبت منه حيث تقول :

فأعجب لطريق أهل الهند ميتهم　　　وذاك أروح من طول التباريح
إن حرقوه فما يخشون من ضبع　　　تسرى إليه ولا خنى (١) وتطريح
والنار أطيب من كافــور ميتنا　　　غبا وأذهب للنــكراء والريح

* * *

وأنت المنكر كل ما ذهب إليه البشر إلا مذهب الهند حيث تقول :

عجبت لكسرى وأشياعه　　　وغسل الوجوه ببول البقــر
وقول النصارى اله يضــا　　　م ويظلم حيــا ولا ينتصر
وقول اليهــود اله يحب　　　رشاش الدماء وريح القتر (٢)
وقوم أتوا من أقاصى البــلا　　　د لرمى الجمار ولثم الحجــر
فوا عجبــا من مقالاتهم　　　أيعمى عن الحــق كل البشر ؟!

ولاح على الرجل أنه منطلق فى تحيته إلى غير نهاية ... فلم يمهله أبو العلاء حتى يأتى على شواهده وأمثاله ويستطرد إلى نتائجه وغاياته . ومال إلى تلميذه ورسوله يقول وكأنه يساره : أين يذهب عن هذا الثرثارة قولى :

(١) خنى الشيء أظهره وهو هنا يعنى النبش .
(٢) رائحة العظم المحروق .

« وغسل الوجوه ببول البقر » ؟ أليس لأهل الهند فيه نصيب ؟ ثم قاطع الصحفي الخطيب سائلا :

ماذا تعني بساميين وآريين وأهل شمال وأهل جنوب ؟

فأسرع التلميذ يجيبه قبل إجابة الصحفي : « إنهم يا مولاي يعتقدون اليوم في بلاد الجرمان أن البشر جنسان : جنس مخلوق للسيادة والحكم . وجنس مخلوق للطاعة والتسخير . وأن أهل السيادة منبتهم في الشمال ثم انحدروا منه إلى الهند ، فهم المعروفون بالهنديين الآريين . وأن أهل الطاعة والتسخير منبتهم في الجنوب فهم الساميون أبناء سام أو الحاميون أبنـاء حام ، ومن شاكلهم في السحنة والسواد ، وأنه ما من نابغ عظيم إلا وهو مردود إلى أهل الشمال في معدنه وعنصره القريب . وإن ظهر بين أبناء الجنوب .. ولعل شبهتهم في انتمائك إلى الشماليين يامولاي : إنك مولود على مدرجة الصقالبة والروم ... » .

فانتفض أبو العـلاء انتفاضة العربي المسبوب في نسبه وصاح بالتلميذ : ويح الرجل ! ماذا عساه أن يريد مني بعد هذا التخليط ؟ قل له إن كان لا يسمع مني .. قل له أنا القائل :

لا يفخـرن الهاشمي على امرىء من آل بربر
فالحق يحلف ما علي عنده الا كـقنبر

وذلك حسبه من جواب ..

* * *

ثم هجم صحفي آخر يبدو عليه الاغتباط بما سمع من زجر زميله ، وأقبل يقول : تحية الاخوان إلى العربي العظيم : أنا ابن من أبناء سام .

فهم أبو العـلاء بالنهوض وهو يكاتم السخط والضجر ، وقال : أما فرغنا بعد من سام وحام ؟ من هذا يابني ؟ وهو يوجه السؤال إلى التلميذ الحائر بين أستاذه وبين طلاب الزيارة والسؤال ، من صحفيين ومستشرقين



ومستطلعين . فبادر الصحفي الآخر إلى جواب أبي العلاء ، وتلطف في تسكين غضبه والترفيه من ضجره ، وأنبأه أنه من أبناء اسرائيل ، وأنهم والعرب أبناء عمومة ، وأنه يريد منه كلمة الفصل في خصومة الآريين والساميين . وأنها قلما تنفع في بلاد الجرمان وقلما يجسر على نشرها بينهم أو نشر كلام يخالف ما يروجونه من أقوالهم ، ولكنه يبعث بها خفية إلى أناس يذيعونها في الخافقين ، ويعتزون بها في خصومة الجنسين ، وفي كل خصومة بين طرفين . أحدهما آل اسرائيل !

وهنا أدركت أبا العـلاء فكاهته المطبوعة وسخره من (تزاحم الأضداد) على قديم الأجداد ، أو على ميراث المـال والعتاد ، وهم يلهجون بميراث الآباء والأولاد ، وقال وقد تهيأ للمسير وتلميذه يعتذر بموعد القطار ووشك الرحلة وخوف التأخير :

(يا أخي : تلك خصومة لا يفصل فيها غير الله ! أنتم شعب الله المختار في القدم ، والجرمان شعب الله المختار في الحديث . فاسألوه ولا تسألوني أيكما صاحب الحظوة الآن ؟) .

# مع المشيعين

هبطت السكينة على نفس أبي العلاء.

وقيل له : إنك في أمان . ليس لأحد عليك من سلطان ، وإنك ممن قيل فيهم « لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .. خرجت من العالم الفاني فـلا تمتد إليك يد ولا ينالك أحد من الناس بعدوان . فقل ما بدا لك من رأي . ولا تخش هلاك إن نطقت بالحق ولا ترفع رأسك ان نطقت بالمحال . أنت اليوم غيرك بالأمس : أنت اليوم من الخالدين !

وإنما قيل له ذلك لأنه صارح بعض الجرمان وهو في بلادهم بمذهبه في اختلاف الأجناس وتفاوت الأقوام . فشجبوه(١) وهموا أن يبطشوا به على تخوم بلادهم ، لولا أن ردتهم عنه هذه الحصانة التي لاحصانة مثلها للمجالس النيابية ولا للهيئات الوزارية .. وهي حصانة الخلود .

لهذا كان مسلكه مع جماعة المشيعين أو الشيوعيين حين نزل بأرضهم غير مسلكه المعهود من التقية والمداراة والصمت والفرار ، فقال ما أراد أن يقول . ولم يعبأ منهم بزمجرة ولا صخب ولا وعيد .

وقف رفيق من رفقائهم يخطب في حفل جمعوه للترحيب بأبي العلاء ، أو للشيوعي العربي القديم كما أسموه ، فقال بعد اسهاب وترديد :

« هذا أيها الرفاق رجل منا قد سبقنا بكل رأي من آرائنا وكل دعوة من دعواتنا : فنحن ننكر التفاوت في قسمة الأرزاق وهو ينكره في كل صورة من صوره . وكل منحى من مناحيه ، فيقول عن التفاوت بين العاملين وأصحاب الأموال :

لقد جاءنا هذا الشتاء وتحته ... فقير معرى أو أمير مدوج
وقد يرزق المجدود أقوات أمة ... ويحرم قوتاً واحداً وهو أحوج

(١) شجبوه : شجب الرجل أحزنه ، وشغله عن حاجته .



ويقول عن التفاوت بين الشاب الفقير وهو أولى بالمال وبين الشيخ الموسر وهو مدبر عن الحياة :

يعيش الفتى في عدمه عيش راغب ... ويثرى مسن للمعيشة سائم

ونحن ندعو إلى التآزر الاجتماعي والتكافل بين العاملين في الأمة ، وهو قد نادى بذلك من قبل فقال :

الناس للناس من بدو وحاضرة ... بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

ونادى بخدمة الحاكمين للرعية فقال :

إذا ما تبينا الأمور تكشفت ... لنا وأمير القوم للقوم خادم

وقال :

مل المقام فكم أعاشر أمة ... أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستباحوا كيدها ... وعدوا مصالحها ، وهم أجراؤها

واستطرد إلى أبعد من هذا في التكافل بين أعضاء المجتمع الإنساني فقال :

وكل عضو لأمر ما يمارسه ... لا مشي للكف ، بل تمشي بك القدم

بل استطرد إلى أبعد من هذا في المساواة فقال :

إن شقا يلوح في باطن البرة ... قسم بيني وبين الضعيف

ولقد بينا نحن للناس أن الآداب والعقائد إنما هي مصالح الطبقة الحاكمة تصوغها على هواها لتدعم سلطانها والغلبة على من دونها . وهذا الحكيم العربي قد بين ذلك حق بيانه حين قال :

إنما هذه المذاهب أسبا ... ب لجلب الدنيا إلى الرؤساء

وحين قال في إظهار سطوة المال وقدرته على تحويل الآداب وتحويل الحقوق :

المال يسكت عن حق وينطق في ... بطل ، وتجمع إكراما له الشيع
وبجزية القوم صدت عنهم ، فغدت ... مساجد القوم مقروناً بها البيع

ونحن بشرنا بدين العقل ، وهو مبشر به فى قوله :

سأتبع من يدعو إلى الخير جاهدا ... وأخرج منها ما أمامى سوى عقلى

ومثل ذلك قوله وهو يسير من كثير :

كذب الظن لا إمام سوى العقل ... مشيراً فى صبحه والمساء

بل نحن قررنا تفسير التاريخ « تفسيراً مادياً » كما سميناه وهو قد أشار إلى ذلك فقال :

الناس للأرض أتباع إذا بخلت ... ضنوا وإن هى جادت مرة جادوا

وألمع إلى ذلك مرة أخرى فى هذا البيت على سبيل الرواية :

قالوا البرية فوضى لاحساب لها ... وإنما هى مثل النبت والشجر

وزاده توضيحاً وتقريراً حيث قال :

لم تجدبوا لقبيــح من فعالكم ... ولم يجئكم لحسن التوبة المطر

ولا أبالغ إذا قلت أنه ذكر الاشتراكية بلفظها فى اللغة العربية ببيت من أبياته العامرة يقول فيه :

لو كان لى أو لغيرى قدر أنمله ... من البسيطة خلت الأمر مشتركا

وأنه قد أنحى على طبقات الفضوليين المتطفلين على المجتمع الإنسانى بغير عمل ينفعونه به حيث قال :

ويعجبنى دأب الذين ترهبوا ... سوى أكلهم كد النفوس الشحائح
وأطيب منهم مطعما فى حياته ... سعاة حلال بين غاد ورائح

فهو يأنف من التطفل الاجتماعى أياً كان المتطفلون ولا يبيح القوت إلا لمن يكسبونه ويستحقونه ، وهو قد فرق فى قصائده ما اجتمع من مبادىء المذهب الاشتراكى فى كتب الأساطين ومباحث الدعاة العلميين . وتلك مرتبة ترفعه على أبناء عصره درجات ، وتجعله من أئمة الفكر فى تاريخ الإصلاح بين الأقدمين والمحدثين ..



ثم اقترح الخطيب على سامعيه أن يقفوا جميعاً ليشربوا نخب الشاعر الذى جمع من مبادئهم فى منظوماته ومنثوراته مالم يجتمع قط فى كلام أحد من الشعراء ..

فنهضوا جميعاً وشربوا أقداحهم وقوفاً . ثم جلسوا يترقبون وقفة الشيخ بينهم ليجيب على التحية والتكريم ويجيب على بحث الخطيب بجديد من مقاله أو قديم . والشيخ لا يعلم أنه مطالب بالوقوف أو مطالب بالتعقيب . حتى نبهه الرسول الذى يصاحبه فى كل مكان إلى ما يترقبه القوم . ثم أخذ بيده إلى المنصة فنزل الصمت على الحاضرين . وانقضت هنيهة لم يسمع بعدها الا شيخ المعرة وهو يقول بصوت رقيق ولكنه ليس بالضعيف :

( ... أنتم مشكورون على جميل ثنائكم واحتفائكم بهذا العاجز الماثل بين أيديكم . لكنه حائر فى موقفه هذا لايدرى ماتبغونه بمذهب الاشتراكيين أو بمذهب التفسير المادى للتاريخ . فأما قوله :

لو كان لى أو لغيرى قدر أنملة ... من البسيطة خلت الأمر مشتركا

فإنما يعنى به التوحيد الإلهى ويريد به أن الناس أغنياءهم وفقراءهم على حد سواء لا يملكون فى جانب الله أرضا ولا يستعبدون أحداً . وهو من قوله

ويقول دارى من يقــول وأعبدى ... مه فالعبيــد لربها والــدار

أو هو من قوله :

ما فى بنى آدم من غنى ... فكلهم مفتــقر عديم
يغنى الذى ماله فنــاء ... وذلك الواحــد القديم

أو هو من قوله :

فقير كل من فى الأر ... ض . ان العبد لا يملك

أو هو من قوله :

إله الأنــام ورب العـــا ... م لنا الفقر دونك والملك لك

فما أدرى من أين تسربت « الاشتراكية » إلى معناه كما تصفونها فيما سمعت من خطب وقرأت من بحوث وشروح .

ما أردت إلا الرفق بالناس . بل ما أردت إلا الرفق بجميع الأحياء ... فكنت أوصى السيد أن يرفق بعبده . وأقول له :

إذا كسر العبـــد الإناء فعده     أذاة له . إن الإناء إلى كسر

وكنت أوصى العبد والفقير أن يرفقا بالبهيمة الخرساء . ويريبنى منهما ما قلت انه يريبنى :

لقد رابنى مغدى الفقير بجهله     على العير ضربا .ساء ما يتقلد

الرفق الرفق .. والرحمة الرحمة . ذلك ما أردت وذلك ما دعوت إليه .... وما دار فى خلدى يومئذ إلا الزكاة يؤديها أهل السعة للمضيقين .

إذا وهب الله لى نعمـــة     أفدت المساكين مما وهب
جعلت لهم عشر سقى الغمـا     م وأعطيتهم ربع عشر الذهب

وكنت أعجب :

كيف لايشرك المضيقين فى النعمة     قـــوم عليهم النعـــماء

وأوصى بما وصى به دين الحنيفية :

وأحسب الناس لو أعطوا زكاتهم     لما رأيت بنى الإعدام شاكينا

أما أن يأتى زمان ينقطع فيه الفقر ويبطل فيه الغنى وتؤول فيه السيادة إلى العاملين المستضعفين على سنة التساوى وشرعة المزاملة فذلك ما أنبأ به بعض المتنبئين فى زماننا فقلت راويا ومجيبا :

يقال إن ســـوف يأتى بعدنا عصر     يُرضى .فتضبط أسد الغابة الخطم (١)
هيهات هيهات . هذا منطق كذب     فى كل عصر زمان كائن قطم (٢)
ما دام فى الفلك المريخ أو زحـــل     فلا يزال عبـــاب الشر يلتطم

وأقولها اليوم مرات : هيهات هيهات ! وما أنتم فيه مصدق لما أقول . وإن أعجبكم أن تسمعوا منى خلاف المعقول والمنقول . وأين لوم الرؤساء

(١) جمع خطام وهو ما يوضع فى أنف البعير ليقاد به .
(٢) القطم : اشتهاء اللحم .



على اتخاذهم المذاهب أسباباً لجلب الدنيا إليهم من قولكم إن المذاهب لاينبغى أن تكون إلا كذلك ؟ إنما أقول على سبيل الإنكار وأنتم تقولون على سبيل الإقرار . وشتان ما أردتم وما أريد .

بل ما لكم لا تدعون أننى ناديت بمذهب الفوضى حين قلت :

إن أكلتم فضلا وأنفقتم فضـــ     ـــلا فلا يدخلن وال عليكم
لا تولوا أموركم أيدى النا     س إذا ردت الأمور إليكم

وما ناديت بالفوضى ولكنى أردت اتقاء الوالين بالعفة والزهادة

قال المعرى ذلك وكأنما كان متجليا عليه فى تلك الساعة قوله :

إن عذب المين (١) بأفواهكم     فان صدقى بفمى أعـــذب

ولم يكن متجلياً عليه قوله إنه يفر بالصمت فى المحال ..

أما ما حدث من أثر هذا الجواب فى نفوس السامعين من معاشر الشيوعيين فغنى عن السرد والإفاضة . وحسبك منه صيحة الرسول فى أذن الحكيم : كفى كفى أيها الأستاذ الرحيم . ! فإنك إن كنت على نجوة فى حصانة الخلود . فما أنا بن القوم من الناجين ! .

(١) المين : الكذب .

# فى بلاد الشمال

خرج المعرى وتلميذه من أرض الشيوعيين وهما يلعنان الديار والديارين وأصبح التلميذ ولا هم له بعد إفلاته من براثن القوم إلا الوصاة بالتقية والمحاذرة ، قائلا ومعيداً ما قال : مولانا الشيخ ! إنك فى حرز من ضيم الأقوياء ، وأمان من سطوة أبناء الفناء . أما تلميذك ومريدك فلا حرز له منهم ولا قوة له معهم . ولا أمان أن يبطشوا به بطشة واحدة . فاذا أنت يامولاى قد فقدته فى منتصف الطريق . وكان الشيخ يداعبه فيظهر الإصرار على المناقشة والمناوشة ويردد ما أنشد فى سابق أيامه بدار الفناء :

إن عذب الذين بأفواهكم  فان صدقى بفمى أعذب

قائلا : يابنى ! ما أنا بصاحب الرحلة بل أنت .. فاصبر على بلائك واحتمل عاقبة رأيك . فينتفض التلميذ خوفاً وحيرة ويعيد الوصاة والرجاء . مناشداً مولاه الرحمة التى آرادها لبنى الإنسان وبنى الحيوان .

فلما أطال التلميذ فى وصاته قال الشيخ : ما بالك ياهذا تخاف وتوصى وتلحف فى الوصاة ؟ ألعلك ذاهب بنا إلى معشر من الناس كأولئك الذين كنا بينهم ؟ إن كان ذاك فعد بنا إلى المعرة واختصر بنا مسافة هذه السياحة . فلا طاقة لى بسخافة قوم آخرين كأولئك الذين فارقناهم فى بلاد الشيوعيين ولا بسخافة قوم كأولئك الذين فارقناهم فى بلاد الطغاة العسكريين .

قال التلميذ : كلا يامولاى الجليل . ما إلى هذه البلاد وأمثالها نرحل . وإنما أخاف مالبس فى الحسبان .. إنما رحلتنا بعد اليوم إلى أقوام يحجرون على المقال حجر أولئك الأقوام ، ولا يقسرون الناس على رأى واحد وضمير واحد . ولكنهم يقولون ما يشاءون ويفكرون كما يشاءون : فان خامرنى الخوف ونحن مقبلون عليهم فذلك يا مولاى خوف الحبل بعد خوف الثعبان ..



وطالت الرحلة فى تلك البلاد بلاد الشمال . وتقلب المعرى وتلميذه بين أهل النرويج وأهل السويد وسائر تلك الأنحاء . فحمدا كثيرا من الأحوال . وشهدا أنماطا من الحكم والعلم لم يشهداها فى البلدان الغربية كافة . فطاب السرى وطاب المقام ..

ونزلا آخر المطاف ببلاد الدانيين أو الدنمركيين . فهما الآن فى مدرسة جامعة دعى إليها حكيم المعرة بأمر من مليك البلاد ووزرائها . على عادة القوم فى اغتنام كل فائدة وتسجيل كل شاردة وواردة . ليسألوا الشيخ ويستطلعوا طلعه . ويساجلوه القول ويظفروا بما شاء من جواب .

قال طالب علم : أيأذن الشيخ فى سؤال عن حكومة ذلك المعشر الذين كان بينهم قبل أن يرحل إلى أقطار الشمال . وأعنى بهم معشر الشيوعيين ؟

قال الشيخ : تلك حكومة كلها ظواهر تخفى ما دونها من البواطن . كاتبها يفعل فيها ما يريد . ولو جرى أمرها على القول الصراح لما كان لهذا الكاتب من صولجان . إلا القلم والقرطاس .

فعاد الطالب يسأل : أو ليس الأمر بين ذلك الكاتب وزملائه على سنة الشورى والمساواة ؟ .

فامتعض الشيخ وأدرك الطالب بالجواب قبل أن يسترسل فى السؤال : مه يا بنى مه ! أى شورى وأية مساواة ؟ لقد سمعنا بعضهم يلوم من يخاطب ذلك الكاتب بكاف الخطاب كما يخاطب سائر الناس ! أعندك يا صاحبى قصيدة شاعر القازاق الذى أنشده مدحه ونحن هناك ؟ قال الشيخ هذا والتفت إلى التلميذ الرسول . فوقف التلميذ الرسول ماثلا على المنصة وقال : نعم يامولاى ! .. ثم مضى ينشد قصيدا يقول فيه ناظمه :

« هل أشبهك بالأنبياء ؟ كلا فبعض الأنبياء يكذبون .

« هل أشبهك بالبحر المحيط ؟ كلا ! فى البحر المحيط صخور يتصدع عليها السفين ..

« هل أشبهك بالجبال ؟ كلا ! فما من جبل إلا وقمته فى مرأى العيون

« هل أشبهك بالقمر ؟ .. كلا ! .. فالقمر لا يضيء إلا فى لياليه ..

« هل أشبهك بالشمس ؟ كلا ! فالشمس إنما تشرق فى يوم صحو لا غمام فيه » . .

وفرغ التلميذ الرسول من إنشاده فعاد المعرى يقول لطالب العلم الذى سأله ذلك السؤال : أو سمعتم أعجب من هذا الدهان(١) فى مديح عاهل أو سلطان ؟ ما أخالكم سمعتموه ، وما أخالكم تذكرون فى الملوك ملكا واحدا كان له من الأمر النافذ فى الرقاب والأذهان ، ما يأمر به كاتب الشيوعيين فيطاع ..

وسأل سائل : أو لم ينصفوا الأجراء من أصحاب الثراء ؟ .

قال المعرى : لا يا بنى . إنهم ظلموا أصحاب الثراء ولم ينصفوا الأجراء ، ولقد أخذوا المال من ذويه ثم أفرغوه فى مصانع الدولة ، وما الفرق بين مال فى أيدى التجار ومال فى أيدى الولاة ؟ .

ورجع السائل إلى سؤال لاحق بما تقدم فقال : لكنهم على ما يقولون قد عدلوا فى الأجور بين العاملين فأجر اليوم واحد لا اختلاف فيه .

قال المعرى : أجر اليوم واحد لا خلاف فيه ولكن العامل المحظوظ عندهم قد يعطى عدة أجور ، فهى مساواة من ناحية واختلاف من عدة أنحاء .

وفرغ السائلون عن معاشر الشيوعيين فنهض السائلون عن أمم الشمال .

قال طالب علم : ألعل الأستاذ قد حمد من قومنا ما ليس يحمده من أولئك الأقوام ؟ ..

قال المعرى : نعم ولا أداجيك يابنى ... فقد رأيت أنكم أبعد الناس عن مداجاة ، وإن بقيت منها أثارة فى جميع بنى حواء .

قال الطالب : وماذا حمد الأستاذ مما شهد فينا ؟ .

قال المعرى وهو يوجز فى جوابه : حمدى منكم يابنى تجارتكم التى بنيتموها على التعاون بين البائعين والشارين ، فما منكم إلا من يأخذ

(١) الدهان : داهن صاحبه : غشه وأظهر له خلاف ما يضمر .



كفايته ويعطى كفاية الآخرين . ولا ربح لأحد منكم خاصة . بل أنتم جميعاً رابحون . لأنكم بالعون شارون .

ذلك يابنى سبيل قوام بين احتكار المحتكرين وبين اشتراك الشيوعيين ، فإذا اهتدى إليه الناس جميعاً فلعلهم يستريحون من تفريط هؤلاء ومن إفراط هؤلاء ..

وحمدت منكم يابنى أنكم لا تفتحون البلدان ولا تقتحمون الأسواق ، وأنتم مع هذا غانمون رابحون . لكل سلعة من أرضكم طالب غير مغبون

وحمدت منكم يا بنى تعليم الفقير وتعليم الضعيف . وقلما من طفل بينكم إلا وله مدرسته وله معلموه . وإن أهمله أناس فى بلاد أخرى لضعف فيه أو لقصور ظاهر عليه ..

وحمدت منكم نظافة وصحة ورخاء تعم الأكثرين ولا يحرمها إلا القليل

وحمدت منكم رعاية الشيخ الكبير . فلا يُقلى(١) عندكم ولا تبخلون عليه بالرزق الكفاف ..

وحمدت منكم — وعرشكم أعرق العروش فى أرض المغرب الحديث — تواضعاً فى الملك لا يرى من أحدث العروش .

حمدت منكم هذا كله فهل هو كثير أو يسير ؟ .

فصاحوا جميعاً : بل هو كثير كثير . من الشيخ الكبير .

قال المعرى وهو يبتسم : أفتأذنون لى — بعد — أن أحمد منكم شيئاً آخر فوق ما حمدت ؟ أتأذنون لى أن أحمد منكم الإيجاز فى السؤال والقصد فى المقال ؟ ..

فكان سكوت ، وكان ضحك ودعاء ، وكان ذلك جواب الشيخ الكبير من سائليه ..

(١) يقلى : يبغض ويكره .

# جر الذيول

قال أبو العلاء : ما كنت أحسب أن سأرى هذا يوم قلت فى مساوىء ذرية البنات :

| | |
|---|---|
| وإن تعط البنـات فأى بؤس | تبين فى وجـوه مقسمات |
| يردن بعـولة ويردن حليا | ويلقين الخطوب ملومات |
| ولسن مدافعات يوم حرب | ولا فى غارة متغشيات(١) ! |

فها نحن أولاء فى أرض أندلس نراهن مدافعات يوم حرب ، ومتغشيات فى غارة ... بل غارات .

كنا نسمع عن هذه الأرض — أرض أندلس — فنحضر فى أخلادنا الجنة وحورها ونعيمها ، فاليوم نشهدها شهادة القرب فإذا هى جحيم مسجور (٢) ، وإذا بالحور فيها زبانية(٣) يقذفون بالشرر ويتقلدون السيوف ... ما أعجب ما ترينى يابنى ! وما أعجب الظباء يقطعن بأظافر النورة وينهشن بأنياب الذئاب ..

قال التلميذ : أو حق يامولاى إنه عجيب ؟ ألم يقل به أفلاطون فى الحكمة القديمة ؟ حسبت يا مولاى أنك على ذكر مما قال حكيم يونان ومعلم رسطاليس ! ..

فتأوه الشيخ فى استذكار طويل ثم قال لتلميذه : ما سمعت بهذا من كلام يونان وحكمائها . فلعل من عجائب زمانكم أن يكون هذا الزمان أقرب إلى أفلاطون من زماننا نحن السابقين الأقدمين ... ماذا قال معلم رسطاليس فى حرب النساء أصلحك الله ؟ ..

فترجم له التلميذ كلمة من قوانين أفلاطون ، يقول فيها :

---

(١) متغشيات : غاشيات يؤذين البرىء وغير البرىء .
(٢) مسجور : موقد .
(٣) زبانية : الشرطة الغلاظ الشداد .



« على البنات أن يتعلمن صناعة الحرب بأجمعها ، وعلى النساء أن يعالجن الرياضة ونظام الجيوش واستخدام السلاح ، ليستطعن — بين أسباب شتى — أن يحرسن ديارهن وأطفالهن حين يندب الرجال للحرب فى أرض بعيدة ، وقد يقتحم البلاد جيش مغير كما يتفق فى كثير من الأجيال ، فيكون خزيا للدولة أن يبلغ من جهل النساء بفنون الحرب أن يعجزن عن القتال والاستماتة فى الذود عن الأطفال . وألا يكون لهن من عمل فى هذه الغارة الا أن يهرعن ناجيات ناجيات إلى الهياكل والمحاريب ! » .

فأوشك أبو العلاء أن يؤمن بصدق ما قال الفيلسوف ، ونزعت فيه نوازع العقل مرة فكادت أن تطغى على نوازع الطبع والعادة ، لولا أن غلبته النحيزة(١) العربية وغلبه تراث الشرق العريق فالتفت إلى تلميذه منشداً :

وحمل مغازل النسوان أولى بهن من اليراع مقلمات !
نعم وأولى من الحديد والنار ..

• • •

ثم استرسل منشداً :

| | |
|---|---|
| ان من أكبر الكبائر عنـدى | قتل حوراء غادة عطبول(٢) |
| كتب القتل والقتـال علينا | وعلى الغانيـات جر الذيول |

ذلك يا بنى حكم ابن أبى ربيعة ، وهو أولى بالحكم فى هذه القضية من معلم يونان .. أكبير يا بنى أجاب هذا الرأى فى زمانكم الحديث ؟ .

فأجاب التلميذ وقد لبس لبوس الأستاذ هذه المرة : هم غير قليلين فى المغرب والمشرق .. فمنهم فى أرض الصقالبة ومنهم فى أرض الصين وماوراءها وكل من يؤمن بالمساواة بين الرجل والمرأة خليق أن يرى ما رآه هؤلاء . فما بال المرأة لا تحارب والحرب اليوم آلات تدار أسهل من إدارة المغزل ومن شكة الإبرة فى الثياب ؟ .

---

(١) النحيزة : الطبيعة .
(٢) عطبول : من النساء الجميلة التامة الطويلة القد .

قال الشيخ : هى صناعة قتل سهلت أو صعبت . فما لكم لا تتركون للمرأة صناعة الولادة وتدعون صناعة القتل لغيرها كما قال أخو مخزوم ؟ وما لكم لا تجعلون جيشها كله على مثال تلك الجيوش التى حدثتنى أنهم حشدوها فى بعض البلاد . لتقويم الأبدان والصولة بيأس الجمال ؟ .

فأسرع التلميذ يقول : لعلها الضرورة يا مولاى ! لعل المقاتلين لا يستغنون عن مدد من النساء إذا قلّ الرجال ..

فأدركه الشيخ قائلا : بل إذا قلت الرجولة وأصبحت الحرب وليست هى من الفروسة ولا من البطولة .. ما أحسب الآفة عندكم أن النساء أصبحن كالرجال . وإنما الآفة فيما أخال أن الرجال أصبحوا كالنساء . فلا حرج إذن من المساواة فى القتال ! .

ثم سأل الشيخ : ما هذا الغرام بالحرب فى كل شعب من شعوبكم حتى استنفدت رجالكم وجارت على نسائكم ، واستنفدت سلاحكم وجارت على أدوات السلم فى أيديكم ؟ ما هذه الحاجة الملحة إلى إزهاق الأرواح وتمزيق الأبدان ؟ أهى فرط كراهة منكم للحياة أم هى فرط خوف من المنية ؟ أم أنتم مدفوعون إلى حيث لا تعلمون وأنتم تحسبون أنكم تعلمون ؟ .

* * *

وكأنما خشى التلميذ أن يحاسبه الحكيم على سيئات عصره ، وأن يسأله فى هذا سؤال المتهم عن وزره ، فأجابه وهو لا يفقه ما يعنيه :

عن هذا أسألك أيها الحكيم العليم ! ! فهى معضلة من معضلات الزمن الأخير نسأل عنها وليس لها من مجيب ! ..

فشك الشيخ غير قليل . وغاب عن صاحبه فى تأمل طويل ، وكأنما أفاق من غيبوبة علوية حين أقبل يقول :

« إنما الحرب يا بنى حيلة من ليست له حيلة ، يقدم عليها من يأمن شرها أو من يخاف جميع الشرور فلا يبقى له ما يأمن .. وإنما يستميت فى الخصومة من يخاصم الأقدار وإن حسب أنه يخاصم إخوانه من بنى الإنسان : إنما



يستميت فى خصومته من يطلب الدوام لشىء لا يمكن دوامه أو يطلب التبديل لشىء لا يمكن تبديله ، فهم يحاربون القدر ولا يحاربون أبناء آدم ومن حارب القدر يا بنى لم يحاربه بنصف عزمه ولا بنصف سلاحه ولا بنصف رأيه : من حارب القدر فأيسر جهده أن يستجمع ، وأن يستميت ، وأن يخسر فى الجانبين وينهزم فى الصفين .

وهؤلاء أبنـــاء أندلس يريد فريق أن يعيد أمس ، ويريد فريق أن يستعجل الغيب ، وليس هذا ولا ذاك فى يد إنسان ، ولو كان فى يد إنسان لكان ، ولم يستعر بينهم كل هذا الشنآن(١) .

قال التلميذ : ألا دواء لهذا الشنآن بين الفريقين ؟ قال الحكيم : حتى يفقد كلاهما كل قوته ، أو يفقد كلاهما نصف اعتقـــاده . فإذا انقصم السيف الأخير فى أيدى هؤلاء وهؤلاء فهناك رجاء فى سلام ! .. وإذا شك كلاهما فى حقه واعتقد أن نصف الحق معه ونصف الحق مع خصمه فهناك رجاء فى سلام ... أما وهناك بقية من قوة فى الصفين ، وإيمان بالحق الكامل فى الجانبين فلا سلام ولا رجاء فيه ! .

* * *

قال التلميذ وكأنه يمزح :

أو لا يسفر الشيخ بينهما ليظهر لكليهما نصف باطله ونصف الحق عند خصومه ؟ ..

ففطن أبو العلاء لموضع المزاح من كلامه وتمتم بين شفتيه :

بعثت شفيعاً إلى صالح … وذاك من القوم رأى فسد
فيسمع منى سجع الحما … م وأسمع منه زئير الأسد

ولأفسدُ من ذاك أن أذهب شفيعاً فى حرب الأقدار ، وســفيراً بين الأعصار(٢) والنـــار ..

---

(١) الشنآن : الكره والبغض .
(٢) الأعصار : الريح تهب وتثير الغبار وماء البحر .

# المـرأة

نشط الشيخ فى ذلك اليوم للبحث والمساحة ، فأقبل على تلميذه يسأله : ألا تحدثنى يا بنى عن تلك الفلسفات التى ذكرت لى أنهم يدورون بها حول المرأة فى الغرب الحديث . وفى زمانكم هذا الأخير ؟ فقد أنبأتنى بالقليل منها يوم حدثتك برأيى فى جنديات الأندلس المقاتلات . وقد لاح لى مما أنبأت أن فلسفات القوم فى هذا المجال تشتمل على كثير . وأن آراءهم اليوم توشك أن تنصرف كلها إلى فلسفة الزواج وفلسفة العشق وفلسفة الإباحة وماشاكل ذلك من فلسفات . وإنى — كما تعلم — امرؤ قد عنيت بهذا الأمر وأفرطت فى العناية به حتى لزمت الرهبانية . فماذا يقول القوم فيه ؟ وعلام يقع الخلاف ؟ وكيف يختلفون ؟ .

قال التلميذ : إنى لأستحى أن أقوم من الشيخ مقام الأستاذ ولو فى هداية الطريق ، فكيف بالهداية فى الحكمة وأقاويل الحكماء ! .

قال أبو العلاء : اعتبرها يابنى هداية طريق فى بلد أنت به أعلم وأنا فيه غريب . فالغربة قد تكون فى الزمان كما قد تكون فى المكان ، وأنت صاحب الدار يا بنى فى زمانك ، فقل ولا عليك من مقام الأستاذ ومقام التلميذ .. ألست أنا القائل :

رب شيخ ظل يهديه إلى    سبل الحق غلام ما احتلم

فقل يا بنى ولا تتحرج . وإن أبيت إلا مقام التلميذ فاقنـع منها اليوم بالطاعة فيما أدعوك إليه ..

فلم يسع التلميذ إلا أن يجيب سؤال الشيخ ، وأنشأ يقول وهو متلعثم فى المقـال :

هذه الفلسفات يامولاى كثيرة كما لاح لك من بوادر الإشارة العارضة . فمن أصحابها من يجعل حب المرأة الحب كله ومرجع الأهواء بحذافيرها .



ويزعم أنه حب يضمره الطفل فى طبعه وهو يرضع من ثدى أمه أو يحبو إلى لعبته أو يتواثب مع لداته . وإنه ما من خبيئة يبطنها الإنسان إلا ومناطها هوى من هذه الأهواء مكبوت . ونزعة من هذه النزعات تختلف فيها التفسير والتأويل . وقد تفصح عنها الأحلام التى يناجى بها الإنسان سريرته فى المنام ، وإن كانت المناجاة هنالك بالرموز والأشـكال دون المعانى والأفكار ..

ومن أصحاب هذه الفلسفات من نشأ على المذهب الأول ثم عدله ونقحه بإضافة حب القوة إلى حب المرأة . أو بإضافة الجاه والجاه إلى الشهوة والغرام ..

* * *

ومنهم من يقول إن الأخلاق ينبغى أن تختلف بين أفراد الرجال والنساء كما تختلف أنواع الغذاء . فالناس فى حاجة إلى غذاء متشابه العنـاصر متقارب التركيب .. وليس من طعام مع هذا هو صالح لجميع الأبدان مطلوب فى جميع الأحوال . وكذلك الأخلاق فى جملتها من عمل الخير والدعوة إلى الصلاح قريبة العناصر متشابهة الأوصاف . ولكنها قـد تختلف مع اختلاف المزاج كما تختلف الطعام على حسب البنية . حتى يكون دواء لهذا ما هو سم قاتل لذاك . فليس لجميع النـاس قانون واحد ولا خلق واحد ولا طعام واحد . بل ينبغى أن يحرم على أناس ما يباح لآخرين ..

* * *

ومن أصحاب هذه الفلسفات من يدعو إلى الإباحة لأنها حالة الطبيعة ، ومنهم من ينكر عليه هذا الزعم فيقول إن الإباحة هى أبعد الأحوال عن طبيعة الأحياء : ألا ترون إلى العجماوات تمانع وتقاتل ثم تعتصم بالعفة والزهادة طوال العام ؟ ألا ترون إلى قبائل الفطرة الأولى كيف تحوط العـلاقة بين الرجل والمرأة بالمراسم والشعائر وكيف تحفها بالتمـائم والشعوذات ؟ فالطبيعة أحجى أن تكون إلى جانب الامتناع والاعتصام

دون الإباحة والانطلاق ، ولا سيما فى غرائز الحب ودوافـــع الشهوات .. والحضارة قد علمتنا أنه حيث تكون القيـــود فى الحب تكون نهضـــة الشعوب ، وحيث تكون الإباحة فى الحب يكون الركود ثم الدثور ..

* * *

ومن أصحاب هذه الفلسفات من يدعو إلى الإباحة لأنها الحـل الصالح عنده لمشكلات الأمم فى العهد الحديث . فالناس يتقاتلون لأنهم يتنافسون على المـــال ، والناس يتنافسون على المال لأنهم يشترون به الشهوات والمظاهر التى هى كالأشراك لاقتناص النساء . فإذا بطلت قيـــود الجنسين بطل فى زعمهم كل ذلك وخفت حدة الزحام والعـــداء وقلت بواعث الفتنة والإغراء ..

* * *

ومنهم — وقد كان رئيساً لحكومة كبيرة فى دولة عظيمة — من يوصى الرجل أن يجرب كثيراً من النساء ويوصى المرأة أن تجرب كثيراً من الرجال قبل الإيواء إلى حرم البيت وحصن الزواج . فان الرجل والمرأة إذا قضيا الشطر الأول من الحياة فى التطواف والتجوال سكنا إلى الزواج وهما جانحان إلى استقرار يعين على الوفاء ، وقنـــاعة تعين على العصمة ، وأصبحا زوجين رشيدين وأبوين صالحين مدى الحياة ..

قال المعرى : حسبك ! حسبك ! .

قال التلميذ : نعم حسبى حسبى . فقد تعبت من « دور » الأستـــاذ وشاقنى أن أصغى إليك إصغاء التلميذ .. فخذ دورك الساعة يامولاى وقل لنا ماذا ترى فى هذه الآراء ، وماذا تقول فى هذه الأقاويل .

ووجم الشيخ قليلا ثم أنشد من كلامه القديم :

لو أن كل نفوس النـــاس رائيـة ... كرأى نفسى تناءت عن خزاياها
وعطلوا هـــذه الدنيا فما ولدوا ... ولا اقتنوا واســـتراحوا من رزاياها

ثم راح يقول :



إن ما سمعته يابنى بعضهُ سديد . وبعضه حق . وبعضه هراء .. حقٌ إن المرأة هوى النفوس وفتنة المطامع

والمرء ليس بزاهد فى غادة ... لكنه يترقب الإمكانا

وانها تفتن من هجر الدنيا كما تفتن من غاص فى غمارها وتقلب فى أوزارها ..

راحت إلى القس بقربهـــا ... وبينهـــا أولى بقربانهـــا
وزارت الدير وأثوابهـــا ... ضـــامنةٌ فتنـــة رهبانهـــا

وإنها مقياس الحياة لايعافها إلا من عافته الحياة :

وإذا الفـــتى كره الغوانى واتقى ... مرضـــا يعود وضره ما يطعم
فقد انطوت عنه الحياة ، وكاذبٌ ... من قال عنـــه يبيت وهو منعم
يقال إن سوف يأتى بعدنا عصر ... يرضى . فتضبط أسد الغابة الحطم

وإنها خفية المسارب فى دخائل الشهوات :

وإنما الخود فى مساربها ... كربة السم فى تسربها

وأنه لا يؤمن منها على صغير ولا يؤمن عليها من صغير :

إذا بلــغ الوليد لديك عشرا ... فلا يدخل على الحرم الوليد

كل هذا حق وكل هذا سديد فى مذهب صاحبكم الحديث وفى مذهب الحكمة القديم ، إلا أن المرأة ليست كل مايثير النفس ويوســـوس فى الضمائر وينبعث مع الغواية ، وليست كل مارامه الرجل .

وإنما رام نسوانا تزوجهـا ... بما اقتراه وأموالا تمولهـــا

أو قل مرة أخرى :

وإنمـــا رام عـزا فى معيشتـــه ... أو خاف ضربة ماضى الحد قلام
أو شاء تزويج مثل الظبى مُعلمة ... للنـــاظرين بأســـوار وأعـــلام

ذلك قوام الرأيين ووفاق الخلافين . أما الرأى فى الزواج :

فلا يتزوج أخـو الأربعـ ... ين إلا مجربة كهـــلة

على أننى أقول كما كنت أقول :

إن الأوانس أن تزور قبورها ... خير لها من أن يقال عرائس

وأقول كما كنت أقول :

تزوج بعد واحدة ثلاثا ... وقال لعرسه يكفيك ربعى
فيرضيها إذا قنعت بقوت ... ويرجمها إذا مالت لشبع
ومن جمع اثنتين فما توخى ... سبيل الحق فى خمس وربع

* * *

وأقول كما كنت أقول :

خير النساء اللواتى لايلدن لكم ... فان ولدن فخير النسل ما نفعا

وأقول كما كنت أقول :

وأصبحت فى الدنيا غبينا مرزّءاً ... فأعفيت نفسى من أذاة ومن غبن

ثم أقول كما كنت أقول :

شر النساء مشاعات غدون سدى ... كالأرض يحملن أولادا مشاعينا

ولا أكتمك مع هذا أننى :

تنازعنى إلى الشهوات نفسى ... فلا أنا منجح أبدا ، ولا هى

فأسرع التلميذ يمتحن الأستاذ ، ويهمس فى أذنه قائلا : « وفيم المنازعة ونحن فى بلاد الغرب والشيخ قد أفرط فى الصيام » .

فقهقه الشيخ وهو يصيح به : إليك عنى أيها الخبيث ... قد خرجنا من هذه المحنة وصارعنا فيها أستاذك القديم ابليس ... والله يعلم أكنا فيها صارعين أو مصروعين ! ذلك سر مكتوم وحديث مختوم .. ! .



# الحكيمان

كان آخر الخطباء فى الجمع العظيم يقول :

« إنها مصادفة عجيبة ولا ريب . فهل أقول إنها مصادفة سعيدة ؟ أخشى أن أغضب الحكيمين المحتفى بهما إذا أنا قلت ذلك . فليس المعرى حكيم المشرق ولا شوبنهور حكيم المغرب ممن يدينون بالسعادة . وليس اجتماعهما اليوم فى عالم الذكرى من دواعى التفاؤل والاستبشار ... فالعالم مقبل على خطوب وكروب وأهوال وحروب ، ولم يكن مذهب التشاؤم قط أدنى إلى الصدق والإقناع مما كان فى هذا العصر المرهوب الجوانب المحذور العواقب ، فإذا سعد الحكيمان بتحقيق ما رأياه وإثبات ما قرراه وإنجاز الوعيد وتقريب البعيد . فهو اجتماع سعيد ! » .

غد — وهو الثانى والعشرون من شهر فبراير — هو تمام مائة وخمسين عاما مضت على مولد الإمام الأكبر فى مذهب التشاؤم بين الغربيين ، وهو أرثر شوبنهور . فما أعجب المصادفة التى جمعت بينه وبين الإمام الأكبر فى هذا المذهب ، عند الناطقين بالضاد ، على ملتقى ألف عام من مولده المجيد إن لم يأذن لنا أن نقول : السعيد !.

« أنقول إن روح العالم فى شدائده وبأسائه قد استحضر روحيهما فحضرا ، وقرّب بين أفقيهما فاقتربا .. أنقول إنها مؤاساة من عالم الخلود لعالم الشقاء والبأساء ؟ أنقول إنهما نذيران أو بشيران ؟ .

« على إننا نكرم زماننا هذا ونكبره ونرفع من قدره إذا نحن وصفناه بزمان التشاؤم وإن حقق لنا مخاوف المتشائمين .

فالتشاؤم — كالتفاؤل — إنما يكون مع الحب والاهتمام ، أو مع الظن الحسن والأمل المشبوب ، تجيء خيبة الأمل حين يكون الأمل معقولا أو شبيهاً بمعقول . أما إذا غلب اليأس من البداية فلا تشاؤم ولا أخلاق ظنون ..

« الذى يهجو المرأة يحبها كالذى يثنى عليها . والذى يملأه الغيظ منها كالذى يملأه الشوق إليها : كلاهما يعتد بها ويشتغل بأمرها ويحسب الحساب لإقبالها وإعراضها . أما الذى يلهو بها فلا شوق ولا غضب ! ولا فرح بلقائها ولا حزن لغيابها . فليس ذلك من العشاق المدلهين ولكنه من طلاب الفراغ العابثين ..

* * *

« كذلك الحياة فى زماننا قلما تتسع فيها النفس لتفاؤل أو تشاؤم . وقلما ترى فيها إلا مُزجيا لفراغ أو لاهيا بحاضر مبتور . لايرجع إلى ماضيه ولا يترقب عقباه ..

« كانت الحياة حليلة نحاسبها على الأمانة والخيانة . وكانت فى بعض أجيالها عشيقة نحاسبها على العطف والمودة . فأصبحت عندنا بغيا من بنات الهوى لانحاسبها على شيء ولا نغار عليها من أحد . ولا ننحى عليها بلوم ولا نخصُّها بثناء ..

« فنحن كما قلنا : نكرم زماننا هذا ونكبره ونرفع من قدره إذا نحن وصفناه بزمان التشاؤم . ليتنا كنا متشائمين . وليتنا نحفل بالحياة ... ما أخالنا نخطىء إذ نقول إن تشاؤم أبى العلاء وتشاؤم زميله فى الغرب سعادة بالقياس إلى ما نحن فيه .. ! » .

كان هذا القائل آخر الخطباء فى الجمع العظيم الذى التقى من بلاد المشرق والمغرب لتحية الحكيمين فى إحدى العواصم . فكان فى هذه التحية تزكية للمذهب الحقيق بصاحبيه . كما كان فيها مناقضة له وتشكيك فيه . لأنها جاءت فى إبانها دليلا جديداً على اتساع أفق الحياة واستغراقها لجميع ما يقال فيها من تشاؤم وتفاؤل . كما تهضم البنية القوية ما ينفع وما يضير ..

وقد خرج حكيم المعرة وهو يعجب ويسأل تلميذه من فرط العجب :

« أحقٌ أن التشابه بينى وبين الرجل على هذا المدى من القرب



والتجاور . مع ما بيننا من مسافة الزمان ومسافة العنصر ومسافة الفكر واللسان ؟..

قال التلميذ : بل هو أقرب من ذاك يامولاى .. فلا عجب أن يتفق الرجلان فى النظرة إلى الدنيا على تباعد الجيرة وتفاوت السيرة . ولكن العجب العاجب أن يتفقا على التفصيلات ويتشابها فى الدقائق والعرضيات . وفيها ليس هو من جوهر المذهب ولا من الضروريات التى يقضى بها التوافق فى الأصول . والتماثل فى العقول .

قال أبو العلاء مستفهما : ومثال ذاك ؟ .

قال التلميذ : مثال ذاك أن الرجل يقول : إن المرء يعيش إلى السادسة والثلاثين من عمره كما يعيش التاجر الذى ينفق من ربحه ونوافله . ثم ينحدر وينقص ولا يزال فى نقصه وهبوطه حتى ينفق من رأس ماله إلى يوم إفلاسه ووفاته .. وأنت يامولاى تقول :

إذا ما تقضى الأربعون فلا ترد     سوى امرأة فى الأربعين لها قسم
فإن الذى وفى الثلاثين وارتقى     عليهن عشرا للفناء به وسم
زمان الغوانى عصر جسمك زائد     وهن عناء بعد أن يقف الجسم

* * *

والرجل يقول بغلبة الإرادة على الفكرة . وضياع العقول مع الشهوات وأن العقل يكف عن العمل . وأن العمل لمن لايعقلون . وأنت يامولاى تقول :

وتفكر الإنسان يثنى غربه(١)     ويرد جامحه إلى الاقتصار

وتقول :

إذا ما أشار العقل بالرشد جرهم     إلى الغى طبع أخذه أخذ ساحب

---

(١) غربه : حدته .

وتقول :

وقد غلب الأحياء فى كل وجهة … هواهم . وإن كانوا غطارفة(١) غلباً(٢)

وتقول :

والعقل زين ولكن فوقه قدر … فما له فى ابتغاء الرزق تقدير

والرجل يرى أن النوم سلفة مستعارة من الموت . وهذا رأيك فى أبيات كثيرة منها :

نومى موت قريب النشو … ر . وموتى نوم طويل الكرى

ومنها :

وموت المرء نوم طال جداً … عليه . وكل عيشته سهاد

ومنها :

وفضيلة النوم الخروج بأهله … عن عالم هو بالأذى مجبول

* * *

والرجل يعطف على الحيوان ، ويؤثر صحبة الكلب على صحبة الإنسان ، وأنت مع تحريمك أكل الأحياء تقول فى الكلب خاصة :

سُبيتَ بالكلب فأنكرته … والكلب خير منك إذ ينبح

والرجل يقول إن الإرادة تورث من الآباء ، وإن الذكاء يورث من الأمهات ، وقد أوشكت يا مولاى أن تقول ذلك حين قلت :

كأن حواء التى زوجها … آدم لم تلقح بشخص أريب

قد كثرت فى الأرض جهالنا … والعاقل الحازم فينا غريب

والرجل يرفع من أقدار نساك الهند ، وأنت كذلك ترفع من أقدارهم ، ويذكر مذاهب المجوس فى الخير والشر . وأنت تذكرها كما جاء فى قولك :

(١) غطارفة : جمع غطريف وهو السيد الشريف .

(٢) غلبا : جمع أغلب وهو الغليظ الرقبة ، والأسد .



فكر « يزدان » على غرة … فصيغ من تفكيره « اهرمن »

* * *

والرجل يقول فى الزمان : « نحن نسلب يوما كل مغرب شمس » ويقول فيه : « إن وجودنا مستقر على الحاضر الذى ما يفى أبدا متدربا عاثراً فلابد له — أى لوجودنا — أن يتلبس بالحركة الدائمة الدائبة بلا أمل فى الوصول إلى الراحة التى ينشدها . مثلنا فى ذلك مثل المنحدر من جبل عال فهو يسقط إذا حاول الوقوف .

وذلك شبيه يامولاى بقولك :

نفس بعد مثله ينقضى … فمدر الدهور والأحيان

وقولك :

أما المكان فثابت لاينطوى … لكن زمانك ذاهب لايثبت

* * *

وغير ذلك التشابه كثير . يدل عليه تناقض التعبير بينكما كما يدل عليه التقارب فى التفكير ..

فالرجل يسأل : « ما هو التواضع إلا أن يكون ذلة مزيفة يلتمس بها المرء غفراناً لفضائله ومزاياه فى عالم مكظوظ بالحسد والضغينة ؟ » .

ومولاى قد تلفع بالتواضع كثيراً لاتقاء الشر والملاحاة . وخلع التواضع كثيراً فى قصائد الفخر والمباهاة . وشغلته هذه المسألة من حيث شغلت صاحبه فى جانبى الإقرار والإنكار ..

قال أبو العلاء : إن هذا لعجيب . وإن الرجل لَىَّ لجد قريب . وما أحسبها إلا قرابة فى الطباع لا قرابة فى الرأى والاطلاع . فان تشابه الطباع هو الذى يوحى القول الواحد إلى أفواه الكثيرين . أما المتشابهون فى العقول فقلما يتفقون . وقد يتنابذون . لأنهم متشابهون !! ..

# حكم وحكمة

كان أبو العلاء قد أقام فى بلاد الانجليز بضعة أيام ، شهد فى خلالها مجامع العلم والأدب ومعاهد الفن والرواية . وسمع الكثير من أنباء السياسة العالمية ، وأنباء الأزمة التى أخرجت وزير الشؤون الخارجية . وأعجبه نمط الحكم وانتظام الأمور بين الحكام والرعايا . فجلس يحاور تلميذه وتلميذه يحاوره ، ويأبى التلميذ إلا أن البرلمان هو أساس هذا النظام وسبب هذا الاعتدال فى تدبير الأحكام ، ويأبى الحكيم إلا أن الأمة التى تنجب البرلمان تعرف الحكم الصالح بغير برلمان . فلو لم يكن فيها نواب وناخبون ، لكان فيها الحكم كما ينبغى أن يكون ، لأنها هى المرجع وهى الأساس ، وكل ماعدا ذلك فهو صور وأشكال ، يأخذها أناس ويبذها أناس ..

قال التلميذ : بل الرأى هنا للكثرة من سواد الأمة . وما على الحكام إلا أن يطيعوا ما يأمر به هؤلاء .

قال أبو العلاء : وهل للكثرة من السواد رأى ؟ إن الله يقول : « ولكن أكثرهم لايعقلون » ويقول : « وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله » ..

قال التلميذ : ويقول : « وأمرهم شورى بينهم » .

قال أبو العلاء : وثبت أنه جل جلاله يقول : « فاسألوا أهل الذكر » ويقول : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون » ؟ .

قال التلميذ : فماذا يسمى الشيخ هذه الحكومة التى يسمونها هنا بالحكومة النيابية ؟ .

قال الحكيم : أسميها الحكومة النيابية واختلف ماشئت فى معنى النيابة وفيمن ينوب وفيمن ينيب . فالرأى لأهل الرأى والحكم لأولى الحكم ،



والطاعة لمن يستطيعونها . ولا مشقة فى الطاعة على سواد الناس إذا صلحت الأحوال وتقابلت الأهواء . فلا غلبة من هنا ولا هزيمة من هناك ، ولا يأس من تبدل الأمور كلما اشتدت سطوة فريق واشتدت معها شكاية فريق ..

* * *

قال التلميذ : أكاد يا مولاى أن أتابعك فى قولك وإن كنت تنظر إلى زمان غير زمانك . فالحق أننا هنا بين أمة توازنت جوانبها فقلَّ فيها الجور وكثر فيها الاعتدال : إن طغى النبلاء صمد لهم كبار التجار . وإن تجبر العلية أو تمرد السفلة صمد لهم اوساط الناس . وإن تحكم رجال الدين قابلهم رجل العلم . وإن صال الجند والقادة فى البر فهناك الجند والقادة فى البحار : تقابلٌ وتوازن لايطغى فيه جانب على جانب . ولا فضل فيه لتدبير فئة على فئة . وإنما هو من صنع الجغرافية ومن صنع التاريخ ومن صنع الفئات كافة . وما داموا على هذا فهم فى صلاح دائم . وأخشى أنهم لا يدومون ..

وإن التلميذ ليوشك أن يمضى فى مقاله إذا بحاجب الباب يحمل إليه رسالة من وزير الشؤون الخارجية المستقيل ، وإذا بالوزير يطلب الإذن فى مقابلة الحكيم . وإذا بالحكيم يسأل التلميذ ويعجب : ما خطب الرجل وهو فى أزمات محرجات لا يفرغ فيها الساسة للأدب والأدباء ولا للشعر والشعراء ؟ والتلميذ يشرح له بعض ما يعلم من شأن ذلك الوزير ، ومن شؤون سائر الوزراء فى تلك البلاد .

قال التلميذ فيما قال : أنه يا مولاى يعرف اللغة الفارسية

قال أبو العلاء : ولكنى لا أعرفها .

قال التلميذ : أعلم ذلك ، ولكنه يا مولاى قد اطلع على شعر حكيم الفرس الخيام ويعنيه أن يلقى حكيم العرب أبا العلاء ، وهو فيما يحسبه بعض أدباء الغرب أستاذ الشاعر الفارسى . وفاتح هذا الطريق فى آداب المشرقين ..

قال أبو العلاء : أو كثير من وزراء هذا البلد من يعنى بهذه المطالب ؟ .

قال التلميذ : غير قليل . فمنهم من يكتب فى الحكمة والعلوم . ومنهم من يكتب فى نظام الشعوب وتدبير الممالك . ومنهم من يكتب فى الخطابة والتاريخ . ومنهم من يكتب فى الطير والسمك . ومنهم من يكتب فى مشاهد الطبيعة ومحاسن الفنون . ومنهم من ينقد أهل الفن والأدب فيتفق له من صائب النقد ما ليس يتفق لرجال هذا المقام وفرسان هذا الميدان كما يقولون . أيذكر مولاى تلك الروايات التى شهدناها فى معاهد التمثيل فأعجب الأستاذ ببعضها وسأل عن كاتبها ؟ .

قال المعرى : تعنى الرجل المسمى « برنارد شو » ؟ .

قال التلميذ : إياه أعنى ..

* * *

فعاد المعرى يسأل : وما شأنه فى هذا السياق ؟ أهو وزير من أولئك الوزراء ؟..

فأجابه التلميذ : كلا بل هو أديب كتب عنه عشرات من الأدباء . فلا أذكر أن واحداً منهم أصاب فى نقده ما أصاب الوزير الذى قال فى شخوص رواياته : « أنها تظهر فى الحياة لا لما تعمل أو تكون . ومع هذا هى صالحة للحياة » .

قال أبو العلاء : صدقت يا بنى فما أعرف لذلك الكاتب المقوال صفة أوجز ولا أصدق من هذه الصفة ... فمن يكون الوزير القائل هذا ؟ أهو زائرنا اليوم ؟ ..

قال التلميذ : ذاك يدعى تشرشل وزائرنا يدعى إيدن . وكلاهما فى ميدان الأدب ومناصب الحكم سواء . وإن كان هذا أدنى إلى المسالمة وذاك أدنى إلى الصرامة والنضال ..

فأطرق المعرى هنيهة ثم ادار وجهه إلى تلميذه وقد اطمأن إلى حديثه . وقال له « ما أحسب اشتغالهم بهذه المطالب إلا من الخير . فان التفرغ



للحكم — بل لعمل واحد كائنا ما كان — سبيل إلى العنت وضيق النظر وقلة السماحة . ومن تعددت مطالبه كان خليقاً أن يتسع أفقه للخصومة والخلاف ، وأن يعود وهو أدنى إلى المودة والإنصاف .

ثم هتف بالتلميذ : لقد أطلنا على الرجل لحظات الانتظار . فأسرع ! أسرع إليه بالدعوة ، وبالاعتذار .

* * *

ويطول سرد الحديث الذى جرى بين الحكيم والوزير ، فحسبنا منه ما استطرد إلى السياسة وتدبير الشعوب .. فقد أفاض الرجلان فى مقاصد القول حتى استنفدا منها كل ما يخوضان فيه ويشاركان فى مناحيه . وأنهما ليهمَّان بالافتراق إذ يقحم التلميذ سؤالا كان من حقه أن يُسألُ لولا أن شغل عنه المتحدثان بأفانين الأدب والثقافة ، ولعل التلميذ قد عز عليه أن يرى فى سياسة العصر رأياً لا يقره عليه شيخه وأستاذه فاندفع يقول :

الا يسأل مولاى زائرنا الكريم فيما طرقناه من حديث الحكومة والبرلمان ؟ فما ينبئنا مثل خبير ! .

ووافق السؤال هوى من نفس الحكيم فأوجز الأمر للوزير وأنصت يترقب منه الجواب ..

قال الوزير : سر التوفيق فى حكومة هذه الأمة أن يتم فيها الأمر الجليل كما يتم الأمر الصغير ، وليس فيها من يعتقد أنه يريده كل الإرادة أو يأباه كل الإباء ، وأنهم قد أحسنوا الخصومة فى الجد .. فالغالب منهم والمغلوب فى رياضة لا توغر الصدور ولا تحفظ القلوب .

# خليفة دانتي

قضى المعرى أياماً فى البلاد الانجليزية وهو يستمع إلى الأنباء التى تفيض بها الصحف رثاء لشاعر الطليان « جبريل دنتزيو » وتعقيباً على أدبه ومغامراته فى الحب والحرب والسياسة . فسأل صاحبه : من يكون الرجل الذى يلغطون به هذا اللغط فى بلاد ليس بينها وبين بلاده صفاء ، ويوشك أن يستعر بينهما لهيب الجفاء والبغضاء ؟ .

قال صاحبه : هو خليفة دانتى ! .

قال المعرى : الآن زدتنى به معرفة .. ومن دانتى يرحمك الله ؟ ..

فثاب التلميذ إلى نفسه وهو يعتذر من فلتات وهمه ! فقد طالما اقترن اسم المعرى واسم دانتى فى قرا آته حتى حسب أنهما متعارفان ، وأن المعرى لا يجهل اسم قرينه ولا يغيب عنه أثره وتاريخه ، فقال :

حسبتك يا مولاى تعرفه وتعرف الصلة بينك وبينه ، فقد زعم بعض الأدباء من أبناء الأندلس المحدثين أنه تلميذك وأنه اقتبس منك روايته المقدسة ، لما بينها وبين رسالة الغفران من المشابهة . فهى رحلة بين الأرض والفردوس والجحيم . ومقـابلة للأدباء وذوى الشهرة من الصالحـين والغاوين ، وحكاية لما يصنعون فى الدار الآخرة قياسا على ما كانوا يصنعون فى الدار العاجلة ... وقد سبقنى الوهم حتى كدت أسألك : أصحيح أنه أخذ منك تلك الرواية ؟ وإنما الصواب أن أسأل « دانتى » لو لقيته كما لقيتك . فهو أقمن بجواب ذلك السؤال .

قال المعرى : وماذا فعل خليفته ؟ أتراه كتب رسالة أخرى على نمط رسالة الغفران ؟ ..

قال التلميذ : كلا يا مولاى وإنما يسمونه خليفة « دانتى » لأنه أشهر شعراء الطليان فى العالم الحديث كما كان أشهرهم فى زمانه . أما مادة



الأدب فلا مشابهة فيها ولا مقاربة . بل لعلهما أقرب إلى المناقضة والمباينة فى كثير من الأقوال والنزعات والأخلاق .

* * *

واسترسل التلميذ فى شرحه وهو لا يحسب إلا أن الحكيم مسترسل فى صمته ليستزيده من الشرح والتفصيل ، فجعل يقول : لقد كان دانتى عُذريا فى هواه متديناً فى شعره صارما فى حياته . أما خليفته فمذهبه فى الحب اشباع الشهوات واستنفاد متعة الحياة ، ومذهبه فى الدين مذهب أهل العصر من الشك والإباحة ، ومجونه أقرب إلى العربدة منها إلى الصرامة وإلى الضحك الثائر أقرب منها إلى العبوس الرصين . وكان دانتى أحرى بالحظوة عند النساء ولكنه لم يحظ منهن بطائل .. أما خليفته فهو بين الصلع والقماءة(١) ، ولكنه محدود عند الشواذ من بنات الفن ورائدات الغرائب والبدوات .. على أنه كان من الشهوانين بالأعصاب ولم يكن من الشهوانين باللحم والجسم ، وكانت لذاته رعدة تهز الأوصال ولم تكن أكلة يملأ بها ماضغيه ويحشو بها أحشاءه ، فهى وليدة القلق والحركة وليست وليدة الترف والاستنامة ، وكأنها قد أصبحت بذلك فى زعمه أقرب إلى الطموح والمثل الأعلى ، وأبعد من الغواية والإسفاف .

فقاطعه المعرى منشداً :

جهلت أقاضى المصر أكرم أتما عما ناله ، أم شـاعر يتغزل

ألهذا يابنى قد شهروه وقدروه ، وبهذا يا بنى قد أكبروا ذكره وسيروه ؟ .

فأحس التلميذ لهجة التأفف والاستنكار فى سؤال الحكيم المعرض عن الشهوات واللذات ، وجاراه من حيث لا يشعر قائلا :

بل لعلهم قد شهروه لمغامراته فى الحرب والسياسة كما شهروه بمغامراته فى الحب والغواية ..

---

(١) القماءة : القبح .

قال المعرى : وماذاك ؟ .

قال التلميذ : إنه كان من أهل بلد صغير فصلوه من موطنه الكبير . فلما كانت الحرب التى يسمونها بالحرب العظمى طمع فى رجعة ذلك البلد وسعى إلى الوصل بين منشأ أهله ومستقر قومه ، فحالت الحوادث دون ما طمع فيه وسعى إليه ، فحمل السلاح وغزا ذلك البلد وأقام نفسه حاكماً عليه وأبى أن يبرحه الا وهو قتيل ، بل جعل يصيح على مسمع العالم كله : أنه لن يبرحه وهو قتيل ، لأنه أقسم ليموتن فيه وليدفنن فى ترابه ، بل أقسم ليكونن هناك نصيراً لكل من أضاع وطناً أو غصب على وطن ، ونادى بدعوته فإذا هى كما قال : « أعظم الدعوات وأجملها وأشدها نقمة على خسة العالم الشائخ وهتره وتخريفه فى هذه الأيام . لأنها تمتد من ايرلندة إلى مصر ، ومن مصر إلى الروسيا فأمريكا ، ومن رومانيا إلى الهند : تجمع الشعوب البيضاء والشعوب ذات الألوان ، وتصلح بين وحى الانجيل ووحى القرآن ، وتمشى بالوئام بين أتباع عيسى وأتباع محمد ، وتمزج فى إرادة واحدة كل ما وسعته الأمم فى نخاعها وفى عروقها من ملح وحديد لإمداد النفوس بغذاء العمل والحركة . وسننتصر لا محالة ! وسينضوى الثائرون من جميع الأمم بين جميع أبناء آدم إلى أعلامنا وسينتضى العزل المظلومون سلاحنا ، وسندفع العنف بالعنف والشدة بالشدة ، ونشنها غارة جديدة كغارة الصليبيين لنصرة المساكين وإغاثة الأمم المقهورة المنزوفة ، ونرسلها شعواء على المرابين والمبتزين الذين غنموا بالأمس أسلاب الحروب ويغنمون اليوم أسلاب السلام » .

قال المعرى : أضغاث أحلام ، وشطحات أوهام ... ثم ماذا كان من شأنه فى ذلك البلد ، وماذا كان من شأنه مع المظلومين والمستضعفين ؟ .

فابتسم التلميذ وقال : هو ما تقول أيها الحكيم .. فما هى إلا أضغاث أحلام وشطحات أوهام ، وما هو إلا أن تبدل الوزراء فى حكومة بلاده حتى خرج حياً من البلد الذى أقسم ليموتن فيه وليدفنن فى ترابه ، وما كان



قد دخله من قبل إلا وهو على تواطؤ مع قادة الجيش ورجال الدولة . فلم يمنعوه ، ولم يقفوا فى طريقه ..

فابتسم الحكيم ابتسامته المرة وعاد يسأل وكأنه يعلم جواب ما سأل عنه قبل الإفضاء به إليه :

والمساكين المستضعفين ؟ ..

فقهقه التلميذ ناسيا أدبه ووقار شيخه ، وقال : أما المساكين المستضعفون فقد جردت عليهم حكومته جيشاً يزيدهم مسكنة وضعفا ..

* * *

فتعجل الشيخ سائلا : فماذا صنع خليفة داتى وخليفتى يرحمك الله ؟ هل أعطاهم من سلاحه ما ينتضونه ؟ .

قال التلميذ : بل أرسل عليهم شواظا(١) من شعره يحض به الجيش الزاحف على حسن البلاء وتشديد النكير ..

فوجم المعرى مهموماً ولم يزد على أن قال :

صدق الله العظيم « يقولون مالا يفعلون » .

---

(١) شواظ : الشعلة واللهب .

# لعب العبقرية

كان أبو العلاء فى أيامه الأخيرة بين أمم الغرب كثير السآمة من لقاء الناس . كثير النفور من المجامع والمحافل ، كثير الإعراض عن الجدل فى المذاهب والآراء والفلسفات التى سمع من أخبارها فى أيام ما لم يسمعه فى أعوام كان بقيد الحياة .

« ما النحو ؟ .. ما الشعر ؟ .. ما الكلام ؟ » كما قال فى بعض أبياته(١) كلها ككل شيء فى هذه الدنيا .

تعب غير نافــع واجتهـاد  لا يؤدى إلى غنــاء اجتهاد

وكانت للأمر فى أول عهده بالقوم جدة وغرابة ، فكان يحتمل المجامع والمحافل ما بقيت الجدة والغرابة .. ثم نصلت(٢) الطلاوة وزالت الغشاوة فإذا الجديد كالقديم وإذا العجم كالعرب ، وإذا الدنيا هى الدنيا والناس هم الناس والحياة هى الحياة ! وكل يوم دعوة ، وكل يوم خروج على غير طائل ، أو على ضجة ما كان أغنى عنها تينك الأذنين اللتين حجبهما الرجل عن الصوت ، بعد أن حجبت الأقدار عينيه عن الضياء .

قال يوماً لصاحبه : كنت أحسب الدنيا بنية مطمورة فى القدم فكلما غاص الإنسان فيها كان أدنى إلى حقائقها وأسرارها ، فلما بعثت فى هذا العصر الحديث حسبتها منجما مقبلا كلما أمعن الإنسان فى غده بعد يومه كان أدنى إلى تلك الحقائق والأسرار ..

فأسرع صاحبه يسأله :

فالآن ماذا تحسبها ؟ .

---

(١) من أبيات يقول فيها :

أف لما نحن فيه من عنت  فكلنــا فى تحيــل ودلس
ما النحو ما الشعر ما الكلام وما  مرقش والمسيب بن علس ؟

(٢) نصلت : نصل الشعر : ذهب عنه الخضاب .



قال أحسبها متاهة مغلقة ، فكلما رجعت فيها أو تقدمت فأنت فى مكان واحد من المدخل أو من المخرج . وقد أغلقت فلا مدخل ولا مخرج هناك .

وكان صاحبه أو تلميذه من أبناء العصر المنشئين على تربيته وعاداته : كل دعوة تأتيه فاما لحضور وإما لاعتــذار . وكانت عنده دعوة من مؤتمر الفلسفة والأديان ، ينتظر أصحابها الإجابة من حكيم العرب وحكيم القرون الوسطى .. فماذا يجيب ؟ والحكيم لايريد الحضــور ولايريد الاعتذار ؟ ..

* * *

تلك فرصة سانحة يوم عرض الحكم للدنيا وشبهها تارة بالبنيــة المطمورة وتارة بالمنجم المحفور ، وتارة بالمتاهة المغلقة .

فعاد التلميذ إلى المفاتحة فى أمر الدعوة إلى مؤتمر الفلسفة والأديان . وعاد الحكيم إلى الرفض والإعراض وزاد متهكما ساخراً : مؤتمر يشاور فيه بعضهم بعضاً فيما يدينون به من عقيدة !! .. ليوشك القوم غدا أن يتشاوروا فيما يحبون من وجه جميل وفيما يأكلون من فاكهة لذة !! وهل يرجع المرء فيما يحبه من جمال وفيما يشعر به من لذاذة وفيما يعتقده من طمأنينة اليقين إلى مشاورة الآخرين ؟ .

فعلم التلميذ أن نوبة النفور أصلح هنا للخوض فى مسائل المؤتمر من نوبة الإقبال والموافقة ، واقترح على الشيخ أن يسأله وأن يدون جوابه . وأن يستخلص من الحديث ما يلقيه على المؤتمرين ، نائباً عن الشيخ . والشيخ معاف من مشقة الذهاب ومشقة السؤال والجواب .

قال التلميذ : أأنت من العقليين يا مولاى أم من الفطريين .. ؟ .

فسأله مولاه :

ما العقليون وما الفطريون هداك الله ؟ .

فلخص التلميذ مذهب العقليين ومذهب الفطريين فى كلمات موجزات . وقال إن العقليين يحسبون أن الإقناع هو سبيل الإصلاح والهــداية .

والفطريين يحسبون أن البداهة قبل التفكير وأن الإقنــاع قلما يغالب الأهواء .. فمن أى الفريقين يا ترى يكون الشيخ الجليل ؟ .

قال أبو العلاء : من كلا الفريقين ! .

أنا من العقليين حين أقول :

كذب الظن لا إمام سوى العـ ـقل مشيرا فى صبحه والمساء

وأنا من الفطريين حين أقول :

العقل يسعى لنفسى فى مصالحها فما لطبع إلى الآفات جذاب

وأنا لست من هؤلاء ولا هؤلاء حين أقول :

وبصــير الأقوام مثلى أعمى فهلموا فى حندس نتصادم ! !

قال التلميذ : خرجنا من البنية المطمورة ومن المنجم المغمور ودخلنا المتاهة المغلقة يا مولاى : هذا تناقض والحق لا يتناقض . فمــاذا أقول للمؤتمرين من رأى الشيخ فى حقيقة الحق بين هذه الأمور ؟ .

فهتف به الشيخ ضاحكاً وجد سرى عنه بعض السآمة : بل التناقض للحقائق يا بنى لا للأباطيل ..

* * *

إن الأباطيل تتغير وتتبدل فيسهل التوفيق بينها بقليل من النقص هنا وقليل من الزيادة هناك ، أما الحقائق فهى التى تقف فى سبيلنا وقفة الصخور . لا تحيد من يمين ولا من شمال ، وعلينا نحن أن نسلك بينها ونتحول من حولها . فان أردت أن أتحول بك فى دروبها قليلا فاعلم إذن أننا نتبع العقل فيما هو للعقل من رأى وتفكير وتجربة ومشاهدة ، وإننا نتبع الفطرة فيما هو للفطرة من ذوق وطمأنينة وتسليم ، وإننا لا نطلب من الفطرة أن تصبح عقلا ولا من العقل أن يصبح فطرة ، وإنما نستشير كليهما حيث يشير ..

* * *



وبدا لأبى العلاء أن تلميذه المصغى إليه يستريح ويستقر على ما سمع فأدركته عارضة من لعب العبقرية ولعب الطفولة الخالدة . وهل العبقرية الخالدة إلا حياة متجددة ؟ وهل يلعب الطفل إلا لما يدركه من جدة الحياة وإقبالها ؟ فكما يرى الطفل من ينامون إلى جانبه وهو يقظان فتأبى عليه شيطنة الحياة العارمة إلا أن يوقظهم معه ويعديهم بمساس من القــلق الذى يشتمل عليه . كذلك العبقرى لا يطيب له أن يأرق وحده والناس هادئون .. فمن ثم إن شئت يقظات الأحلام والناس نيام ، وشيطنة الخلود والفانون سادرون فى موت الجمود : قل إن شئت أنها جدة تلطف جدها . وأنها حلاوة تخالط مرارتها ، ولكنها — بعد كل ما يقال — لا تخلو من جانب اللعب فيها وجانب الرياضة . ولن يستحق الجد ما ليس فيه لعب ولا رياضة ..

* * *

بدا ذلك لأبى العلاء فأومأ إلى تلميذه يسأله وقد كفَّ هو عن سؤاله :

أراك صدقت وآمنت . فالك لا تسأل : ومن الذى يستشير العقل ؟ ومن الذى يستشير الفطرة ؟ أفى الإنسان شىء خارج العقــل وخارج الفطرة فهو الذى يكون منه السؤال ثم يكون الجواب أما من العقــل المسئول أو من الفطرة المسئولة ؟ وما الرأى إذا كان السائل هو الفطرة والمجيب هو العقل ؟ .

وما الرأى إذا وقع الخلاف على السؤال وعلى الجواب ! ؟ .

وفوجىء التلميذ .. ولكنها مفاجأة وقعت منه موقع السرور والتأهب ، لأنه انتظر بعدها مزيداً من الاستفسار ومزيداً من التفسير . فقــال إذن أنت يامولاى من الجبريين ؟ ! ولا أدرى كيف فاتنى الساعة أن أذكر ذلك وأنت القائل :

والعقــل زين ولكن فوقه قدر فما له فى ابتغــاء الرزق تقدير

* * *

قال أبو العلاء ولا تزال فيه تلك العارضة من لعب العبقرية : ولا تدرى أيضاً كيف فاتك الساعة أننى لست من الجبريين ولا من القدريين لأننى أنا القائل :

لا تعش مجبرا ولا قدريا    واجتهد فى توسط بين بينا

قال التلميذ وكأنما شملته تلك العارضة التى استولت على أستاذه فى تلك الساعة :

وهل هذه إلا الجبرية بعينها ؟ لا تريد أن تقول إن الإنسان مجبر ولا تريد أن تقول إنه مخير . ولا تفصل فى المشكلة بل تدع الفصل فيها لعالم الغيب أو عالم الشهادة .. ماذا يكون الجبريون إن لم يكونوا هكذا غير مختارين فيما يفكرون وفيما يعتقدون ؟ .

فأصغى المعرى وأعجبه ما سمع من تلميذه فأومأ موافقاً : « نعم هى الجبرية فى أرجوحة ذاهبة آيبة .. وهى خير من الجبرية فى قيد مقيم ..

قال التلميذ :

لقد عدم التيقن فى زمان    حصلنا من حجاه على التظنى (١)

* * *

فهتف به المعرى : ويحك إنك لتتعقبنى بكلامى القديم تعقب المذنب بإقراره .. فهلا أغناك حفظك عن مطاردتى بالسؤال والاستقصاء ؟ .

فلاحقه التلميذ قائلا : المدى يا مولاى فى هذه المسائل فسيح . والتعب لا يضير . وخطوة واحدة إلى الأمام أو خطوة واحدة إلى الوراء لن تضيق النطاق ، ولن تقرب اللحاق .

قال الشيخ مترقبا : ثم ماذا ؟

قال التلميذ مجاريا : ثم علام الجزاء إذا كنا فيما نحسن أو نسىء مجبرين مسيرين ؟ ..

(١) التظنى : الظن والتخمين .



قال الشيخ : إذا كانت النفس تعمل الخير مكرهة فما حقها فى الجزاء ؟ وإذا كانت النفس تعمل الخير مختارة لأنها تؤثره وترضاه وتجد فيه الغبطة وفى غيره الندم والحسرة فما حقها أيضاً فى الجزاء ؟ فأحر بنا ألا نشغل بالنا بمثوبة أو عقوبة .

ولتفعل النفس الجميل لأنه    خير وأحسن لا لأجل ثوابها

* * *

إن الطفل يا بنى يؤجر بالدرهم ليأكل الطعام وفيه مصلحته ونماؤه . فاذا كبر الطفل بذل هو الدرهم وصبر على بذله وتحصيله ليأخذ به طعامه ويشبع به نهمته وأوامه(١) .. وكذلك تصغر النفس فتؤجر على خيرها الذى تجهله . وتكبر النفس فتبذل هى الأجر على ما تعمل من خير . وذلك هو الجميل وذلك هو الثواب .

أدين برب واحد وتجنب    قبيح المساعى حين يظلم دائن

ثم أنشد :

وليس اعتقادى خلود النجو    م ولا مذهبى قدم العالم

* * *

ثم عاودت الشيخ تلك العارضة من لعب العبقرية الخالدة فصاح بالفتى : أسرع .. أسرع يا بنى إلى مؤتمر الفلسفة والدين . أسرع إليهم فقد طال بهم الانتظار ، فى طلب هذا الحوار . الذى لا يستقر عليه قرار . ولا يزيد به عدد الأبرار . ولا ينقص به عدد الفجار .

ثم تمتم بين شفتيه :

ما النحو ؟ ما الشعر ؟ ما الكلام ؟

كلام فى كلام !

(١) أوامه : الأوام : شدة العطش .

# الاختراع

السفينة فى طريقها إلى المشرق والمعرى وصاحبه على مقدمها يستقبلان الهواء ، والمذياع يغنى الأنشودة المشهورة على لسان امرأة لاهية تقول بالفرنسية :

« عنـــدما تضمنى بين ذراعيك ، أنا أعلم الكلمـــة التى ستقولها .. ستقول إنى أحبك ! وهى كلمة كاذبة ولا شك .. ولكنى مع هذا أحب أن أسمع صوتك ! » ..

والفيلسوف يسأل : ماذا تقول هذه المرأة ؟ والتلميذ يترجم الأنشودة ويتخابث فى سؤال الشيخ عن رأيه فى هذه المناجاة العصرية ، على لسان امرأة تخاطب رجلا ، أو على لسان النساء يخاطبن الرجال .

والشيخ يتأمل باسما ويجيب تلميذه راضياً رضى القانطين المستسلمين :

« هو الغرب كله يا بنى ماثل فى هذه الأنشودة اللاهية : هو الغرب الذى يأخذ من الحياة ما تعطيه ، ويطلب السرور ، ثم لا يسوم دنياه طلب الوفاء والكمال .. هو الغرب الذى يأخذ كل شىء بقيمته وكل شىء على حقيقته ، ثم يصقله ويحببه إلى نفسه ليستسيغه ويستمرىء مذاقه . هو الغرب ذو النفس الناطقة التى لا تقول كلمة فى جدها ولا لهوها إلا جمعت فيها خلاصة ما عندها من حضارة وأخلاق وفلسفة وشعور ... » .

قال التلميذ :

أوليست كل النفوس ناطقة ؟ ألا تفصح كل نفس عن دخيلتها فى غنائها ومناجاتها ؟ ..

قال الشيخ : بلى . ولكن شتان تعبير اللسان الذى يقول فيجمع حياته فيما يقول ، وتعبير الثمرة التى ترى قشرتها فترى من لونها وتشم من



رائحتها إنها ناضرة أو ذاوية ، وصحيحة أو معطوبة : ذلك تعبيرٌ الفضل كله فيه للقائل . وهذا تعبير الفضل كله فيه للناظر . وكلاهما تعبير ولكن المسافة بينهما كالمسافة بين الحياة والجمود ، والحركة والركود » .

فصاح التلميذ : اليوم سيدى الشيخ عربى وهو يفارق الغرب إلى الشرق ! .. فهلا كان غريباً وهو فى بلاد القوم مستريح ؟ .. أم كتب على الإنسان أن يحب ما يفارق ولا يزال ساخطاً على ما هو فيه ؟ .

فصمت الشيخ هنيهة ، ثم راح يمضغ بين شفتيه :

يا ماء دجلة ما أراك تلذ لى     شـوقا كماء معرة النعمان

اطمئن يا بنى . ما أنا إلى الغرب ولا أنا إلى الشرق . أنا إلى معرة النعمان فهلا آن الأوان ؟ .

* * *

فأراد التلميذ أن يطاوله ويصرفه عما ورد على نفسه فى تلك اللحظة من الحنين إلى وطنه . وعاد يحاوره وكأنما يتحداه ليستثيره ويجنّبه غاشية السوداء التى هى مقبل عليها :

أفى المعرة مثل هذه السفينة ومثل هذا المذياع ومثل هذا الصـوت الجميل ومثل هذه الأعاجيب ! .

وكان المعرى قد ركب السفائن والطائرات . وعرف مطايا الكهرباء ومطايا البخار ، وقال فى كل منها قولة عارضة وهو يركبها أو يترجل منها . ألا أنها رحلة العودة فهى خلاصة المقال ونهاية المآل ، فيما رأى من هذه الصنوف والأشكال . فقال :

وما حاجة المعرة إلى سفائن البحار ؟ فيها السيارة وتحوم على فضائها الطيارة ولو كان فيها بحـر لكان فيها مثل هــذه السفينة ومثل هــذه الضوضاء ..

قال التلميذ : وكلها من صنع الغرب الذى ما أدرى أيبرم به الأستاذ أم هو مشوق إليه ؟ ..

قال المعرى : الآن فهمت ما تريد .. فهلا أنبأتنى يابنى ماذا صنع الغرب من هذه الآلات يوم كنا نعيش حياتنا الدنيا فى المعرة ؟ لعمرك يابنى ما صنعوها اليوم إلا لأنهم قد احتاجوا إليها ، وإلا لأنهم قد بنوا على أساس ما سبقها وهيأ أسبابها من صناعات القرون الأولى . يابنى ! لا تهولنك المظاهر ولا تعجبنك كثرة الأعداد . فلعل مبتدع الشراع والدولاب أحذق من مبتدع البخار والكهرباء ، ولعل القوس والسهم أبرع فى اختراعهما من المدفع والقذيفة ، ولعلهم كانوا يعيشون على عهد الشراع خيراً من هذه العيشة ، ولعلهم كانوا يموتون على عهد القسى والسهام أكرم من هذه الميتة ! ولعل متعة الحالم بالطيران أحب إليه من متعة الطائر بالجثمان .

* * *

قال التلميذ : ولا أحسبنى مع هذا مخطئاً إذا قلت إننى لمحت دلائل الدهشة على وجه الأستاذ يوم ركبنا الهواء أول ما ركبناه ..

قال أبو العلاء : تلك دهشة تغنى عن دهشات .

فسأل التلميذ : أيحب مولاى أن أفهم من هذا أن الكهرباء والبخار وما صنع الإنسان منهما لاتستحق دهشة الحكيم كما يستحقها الإنسان الطائر فى الهواء ؟ .

قال أبو العلاء : لا أحب أن تفهم هذا ولا أكرهه ، ولكننى دهشت لمعنى ما رأيت حين رأيته أول لمحة . ثم أغنانى ذلك عن دهشتى للمصنوعات المكررة والظواهر المختلفة .. أتحسب أن من يدهش للطيران فى الهواء خليق أن يدهش لكل متحرك بالبخار والكهرباء ؟ أفمن شهد الشراع مرة خليق أن يدهش له مرات كلما حركته ريح شمال أو ريح جنوب ؟ ذلك معنى واحد فى ألفاظ شتى ، أو ذلك جسد واحد فى مختلف الثياب .



وحسبك أن تعلم أن تسخير القوى التى يسمونها بالقوى الطبيعية مستطاع لتزول عنك الدهشة من كل ما يستطاع من هذا الطراز .

فاندفع التلميذ سائلا : أفكل هذه الآلات إذن ليست بالفتح الجديد ؟ أليس فيها ما يستوقف الحكماء من تاريخ بنى الإنسان فما يرى سيدى الأستاذ ؟ ..

فلم تمهله أبو العلاء هنيهة ، وأجاب :

« لا فتح ولا إقفال » ! .

« وربما فتحت هذه الآلات لإنسانك يا بنى فتحا جديداً لو أنه سخر الآلات ثم أطلق نفسه من العقال ، أو لو أنه ملك نفسه يوم ملك آلات الأرض والهواء .. ولكنه سخر الآلات المصنوعة ليصبح شبيها بها ، ثم ازداد فى التسخير ليزداد فى الشبه . فهو أسير ما صنع ورهين ما ابتدع . فان سميت هذا فتحا فالله يفتح عليك ..

* * *

ولم تخف لذعة السخر والمرارة فى كلمة الشيخ الأخيرة على فطنة تلميذه الملحاح فقال وهو لا يتعمد الإطالة فى الحوار :

أتخال إنسان اليوم على جميع حالاته أطلق من آبائنا الأولين ! .

فتمتم أبو العلاء هامساً : أكذاك ؟ .

ثم انثنى يقول : لأمر ما كان الأوائل يروضون الحيوان وكنتم فى زمانكم هذا تروضون الجماد : كلٌّ قريبٌ إلى ما يروض ! وما أحسبكم تفلحون فى رياضة حيوان واحد بعد الذى راضه آباؤكم المتقدمون . ولكنكم كلما قاربتم الآلات خرجتم من رياضتها فى كل يوم بجديد .

* * *

وتعمد التلميذ المناوأة الخفية فقال :

ومع هذا يغبط مولاى الجماد ويسبح الله الذى أعفاه من الطعام والكساء ومن الرحلة والشقاء .

ولم يرفض أبو العلاء هذه المناوأة بل جرى فى مجراها فقال متمنيا أو متهكما على حدٍّ سواء :

لو عوفيتم كما عوفى الجماد !

فأنس التلميذ إلى هذا التهكم الرقيق وراح يسأل :

وهل عوفى الأقدمون ؟ .

قال أبو العلاء : كلا . على هــذا مضيتم ومضى السلف ، إلا أنهم صبروا حيث تضجرون ، وطلبوا من الدنيا دون ما تطلبون ، فإذا كانوا مثلكم فى الشقاء فلقد كانوا أقل منكم فى الشكاة ، وإذا كان نصيبهم كنصيبكم من الخير فالذى يطلب الألف ويجد المائة محروم ، والذى يطلب العشرة ويجد الخمسين مجدود لا تحسبه من أهل الحرمان .



# أقصى المغرب

قاتل الله المجاز ! ..

كان هذا أول ما فاه به المعرى لتلميذه بعد أن علم سبب الكارثة التى أودت بمئات النفوس من ركاب السفينة . إذ كانا يركبانها ويتحدثان فيها ذلك الحديث المروى فى الفصل السابق .. وكانا قد بلغا شواطىء الأندلس حين وقعت الواقعة . وما هى الواقعة ؟ قذيفة أطلقتها على السفينة غواصة من غواصات الثوار فهبطت بها إلى القرار ، ثم نجا المعرى بعصمة الخلود ، ونجا تلميذه ببعض المجهود ، وهما الآن على متن سفينة أمريكية تمخر بهما بحر الظلام ، إلى بلاد العم « سام » .

ومال التلميذ إلى الأستاذ يسأله :

أعلمت يامولاى ما سبب الكارثة ؟ .

فقال الأستاذ : وما سببها ؟ .

قال : أنت يا مولاى ! .

قال : ويحك ! وكيف أكون أنا سبباً لإغراق سفينة أنا راكب فيها ! أهى دعوة صائبة ؟ ..

قال التلميذ : بل هو مجاز خائب .. كتبت بعض الصحف أن سفينة من السفن تفارق الشواطىء الأندلسية وعليها ذخيرة عربية نفيسة .. ومن تكون الذخيرة العربية النفيسة غير أبى العلاء ؟ فلما تواترت الأنباء بهذا المجاز النفيس حسب الثائرون على حكومة الأندلس أن هذه الحكومة تبعث بالتحف العربية الغالية إلى بلاد أجنبية ، لتودعها أو ترهنها هناك . فطاردتنا وأغرقتنا لتحرمها هذه الذخيرة ، أو تستولى عليها إذا أدركتها قبــل أن تبتلعهــا اللجة ، فغرقت السفينة وهلك من هلك من جراء أبى العلاء ..

قال أبو العلاء : قاتل الله المجاز ، بل هو الذى أهلك القوم كما أهلك من قبلهم أمما خالية أغرقها المجاز فى بحار من الكلام . وأنا مع ذلك القائل :

لا تقيّد على لفظى فانى     مثل غير تكلمى بالمجاز

نعم وأنا القائل أيضاً :

بنى الدهر مهلا إن ذممت فعالكم     فانى بنفسى لا محالة أبدأ

* * *

ثم قال : وإلى أين تمضى سفينتنا الآن بالذخيرة العربية النفيسة ؟ أترانى سأغرقها مرة أخرى ؟ .

قال التلميذ : بل إلى بر السلامة إن شاء الله .. إلى بلاد العم سام !

قال أبو العلاء : وما عسى أن نشهد هناك غير ما شهدنا ؟ أو نسمع هناك غير ما سمعنا ؟ .

قال التلميذ : كثيراً يا مولاى .. سنرى قبل كل شىء مُلكاً عظيماً على الطريقة الأمريكية ..

فتمهل أبو العلاء قليلا ثم قال : أرانى سأقضى منك ديون السؤال كلها فى هذه الرحلة . فما هى هذه الطريقة الأمريكية التى نسمع بها فى كل شأن من شؤون هؤلاء الناس ؟ وكيف يكون الملك العظيم ملكاً عظيماً على هذه الطريقة ..

قال التلميذ : بالامتحان والكشف الطبى ، كأنه موظف فى الخدمة اليومية ! .. فهذا الرجل الذى يحكم الدولة العظمى فى الديار الأمريكية قد كان مشلولا فى كهولته ثم تقدم إلى الشفاء ، فلما أذاع خصومه أنه لايصلح للحكم عرض نفسه على الأطباء الثقاة ليشهدوا له بصحة العقل وصحة الضمير . وقد شهدوا له وجاز الامتحان عند أبناء وطنه فانتخبوه . أليست هذه طريقة أمريكية فى الحكومة كالطرق الأمريكية فى الصناعة والتجارة . وفى كل شأن من شؤون هؤلاء الناس ؟ .



قال أبو العلاء : وهل أفلح الرجل وصدق الأطباء ؟ .

فأجاب التلميذ : نعم أفلح غاية ما يستطاع الفلاح . وعالج الشلل فى قومه كما عالجه فى جسمه ..

فأدركه أبو العلاء متهانفاً وصاح به : غرقة أخرى يابنى ! .. ومجاز آخر يوشك أن يرسل بالسفينة إلى القرار .. أفصح يابنى ودعنا من المجاز ! ..

* * *

فاستضحك التلميذ ، ولكنه شغل بالجد فيما هو فيه عن سخرية الشيخ وارتيابه ، فطفق يقول :

لقد صعد « روزفلت » العظيم إلى كرسى الرئاسة والأمة الأمريكية كالجسم الذى له نصف محتقن بالدم الغزير ونصف منزوف مشلول لقلة الدم فيه ، فكان كالقلب الذى لا تنتظم به دورة الدم فى جميع العروق ، وأخذ من النصف المحقون للنصف المشلول ، فدار الدم دورته فى جميع العروق ، وأوشكت الحركة أن تعود إلى جميع الأعضاء .

قال أبو العلاء : أتراه أثار الفقراء على الأغنياء كما صنعوا فى بعض الديار الأوربية ؟ ..

قال التلميذ : لو صنع ذلك يامولاى لكان من الفاشلين . فان هذه البلاد على تقدم الصناعة فيها وكثرة الصناع بين أبنائها تعتصم من ثورة الفقراء على الأغنياء بشتى العواصم ، وتحتمى منها بكثير من الحصون :

منها يا مولاى أن باب الغِنى مفتوح لكل فقير مستطيع ، فكل فقير فيها يمنّى نفسه بالثروة بعد حين ، ولا يشعر باحتكار الثروة فى أيدى طائفة من الناس تتوارث المراتب وتتوارث الأموال .. فمن هنا يحسب الفقير أنه يثور على نفسه أو يثور على أمله حين يثور على الأغنياء .

ومنها أن الأمريكيين قوم ورثوا المغامرة والمراهنة من أجدادهم الأولين

الذين غامروا بالهجرة إلى المغرب المجهول منذ قرون ، فمن شغفهم بالمغامرة والمراهنة أنهم يحبون الانتخاب وينتظرون السباق فيه بين الأحزاب . ولا يلجأون من أجل ذلك إلى الإضراب والاغتصاب .

ومنها أن الزراعة عندهم توازن الصناعة ، وأن الريف بينهم يوازن المدينة وأن ازدحام الحواضر لا يخلي القرى من الحارثين الحاصدين ، وهؤلاء أقرب إلى جانب الاستقرار منهم إلى جانب الثورة والثوار .

ومنها أن حب الدين فيهم قديم . لأن آباءهم الأولين كانوا أناساً متطهرين متطهرين نقموا معيشة الفساد في أوربا فهجروها إلى الغرب متعففين متورعين وإنما يثور الإنسان على الأرزاق حين يثور على الأقدار ..

* * *

قال أبو العلاء : أرحتني من الأستاذية في هذه الرحلة المباركة أراحك الله . غير أني أراك قد ذكرت لنا ما منع رئيس القوم أن يثور بالفقراء على الأغنياء ولم تذكر لنا ما صنع لعلاج ذلك الجسم المحقون المشلول .. أتراه رجع فيه إلى الأطباء ؟ .

قال التلميذ : عفواً يا مولاي . أحسبها غلطة من غلطات الحداثة في الأستاذية . أو أحسبها أسلوباً مبتكراً على الطريقة الأمريكية ، ومن كان أستاذاً لأبي العلاء فمغتفر له ما شاء من إمهال وإبطاء .

فاعلم يا مولاي إذن أنه أجزل من الأجرة والوقت للصانعين ، وأكثر من الأرزاق للشيوخ والعاطلين ، فأكثروا من الإنفاق وراجت بهم الأسواق ..

فسأل أبو العلاء : ومن أين جاء بالمال ؟ .

قال التلميذ : بعضه من أرباح الأغنياء والفقراء ، وبعضه من الضرائب على رءوس الأموال .

فعاد أبو العلاء سائلا : وكيف رضوا بما فُرض عليهم ؟ ..



قال التلميذ : رضوا كارهين أو كرهوا راضين . فإن كثرة البيع والشراء خير من كساد السلع والخوف الدائم من ثورة العاطلين والمطرودين . والمال الذي يذهب ويعود خير من المال الذي يُفسده الركود

* * *

فسأل أبو العلاء مرة أخرى : وهب التجار لم يخرجوا من بضائعهم إلا بمقدار . فأمنوا بذلك مغبة البوار ، وقنعوا باعتدال الأسعار . فهل تزن الأرض غلّاتها ، وهل تحكم الحكومة على نباتها ؟ ..

قال التلميذ يقرظ أستاذه العجيب : ما أعجبك يا مولاي من أستاذ وما أعجبك من تلميذ . أنك لتحسن السؤال كما تحسن الجواب . فاعلم إذن يا مولاي أن الأرض قد أخرجت ما شاءت وأن الحكومة قد أتلفت منه ما شاءت ، وهو النصف من جميع الغلات .

قال أبو العلاء : وهل رضي الزارعون ؟ .

قال التلميذ : رضوا كارهين أو كرهوا راضين . ثم حمدوا المغبة بعد حين ..

* * *

وانطلقت السفينة في عبابها وأبو العلاء يقول وكأنه يحدث نفسه ولا يعني تلميذه بما يقول :

لئن نجح الرجل نصف نجاح لقد نجح في حقيقة الأمر كل النجاح . فما من الصواب أن نسوم إنساناً واحداً كل الصواب . وأن نمضي من حوله كلنا مخطئين ..

# أقصى المشرق

قل إنهم يحبون العجلة ! قل إنهم يكرهون الوقت ! قل إنهم حائرون، فيما يحبون وما يكرهون . أما أنهم يحبون المال وكفى فان من يحب المال للمال لا يتحرك ولا يعيش ، بل يجلس كما تجلس العجوز على القدر المدفونة ، أو كما يجلس الصيرفى على خزانة الذهب ، وهؤلاء لا يجلسون جلسة العجوز ولا جلسة الصيرفى ، ولكنهم يتحركون ويعيشون .

كان ذلك حكم المعرى على الأمريكيين أو قل « حكم المعرى للأمريكيين » وهو خارج من بلادهم ، وكان قد حضر مع تلميذه عيد الاستقلال فى عاصمتهم ورأى بذخ القوم وإسرافهم فى بذل أموالهم لإزجاء أوقاتهم والحفاوة بذكرياتهم ، فلما برحا الشواطىء الأمريكية من أقصى المغرب واستويا على مكانهما فى السفينة يعرضان ما عبرا وعبر بهما ، ويجمعان ما تفرق من الوقائع والمشاهدات قال التلميذ : هذه أمة تحب المال ولا تعمل إلا للمال ، فأبى المعرى أن يجارى تلميذه فى حكمه ، وقال عن القوم ذلك المقال .

ولا ندرى لم لم يطب المقام فى بلاد الشمس المشرقة لرهن المحبسين كأنما كان هناك فى حبس أشد عليه من محبسيه .

فكان فى أرض « نيبون » يتأفف ويتبرم من كل شىء ومن غير شىء ، ولم يزل مع تلميذه على حذر وامتعاض حتى هجرا أرض نيبون إلى أرض الصين ، وأقاما فيها برهة بين الفتن والثورات والمجاعة تارة والقحط تارات ، ولكنهما كانا أقرب شىء إلى راحة البال والإقبال على شهود الأحوال ، لأنهما كانا يشهدان فى الصين جهداً يسر الناظرين أن يبلغ تمامه . أما الجهد الذى كانا يشهدانه فى أرض نيبون فقلّ أن يكون فى تمامه سرور للناظرين ، ولا سيما الحكماء .



قال التلميذ يستفز أستاذه للكلام :

أو ليس القوم فى أرض نيبون على جانب من الشجاعة عظيم ؟ .. قال المعرى : بلى ! إن كنت تعنى شجاعة الغريزة ولا تعنى شجاعة النية والإرادة ..

قال التلميذ متجاهلا : وما شجاعة الغريزة وما شجاعة النية والإرادة يامولاى ؟ ! ..

فأجابه الحكيم غير متأفف ولا متبرم : أن الشجاع الحق هو من يعرف الخطر ويخشاه ثم يغلبه بعزيمة هى أعظم من الخطر وأعظم من الخشية . أما الشجاع الذى يقتحم الخطر لأنه مدفوع إليه بعادات الأقدمين وسنن الآباء والأجداد فذلك أسير لا فرق بينه وبين من يقتحم النار مسوقا إليها بسلسلة من الحديد ، ولا فرق بينه وبين الأسير الذى يقدمه آسروه فى الطليعة وهو لا يملك الفرار ، وقد توجد هذه الشجاعة فى الحيوان كما توجد فى أبناء آدم ، فهى من أصول لا ارتفاع فيها ولا تعلق لها بالتكليف والضمير ..

* * *

وقال التلميذ : لو أن الأستاذ قد شهد أسراب الطير وهى تعبر البحر المحيط كل عام فيغرق منها من يغرق ويسلم منها من يسلم ثم تعود إلى الهجرة ولا تخاف الموت ولا تعرف ما هو لحسبت أنه يعنى هذه الشجاعة حين يذكر شجاعة الغريزة وشجاعة الحيوان ..

فقال المعرى : ما رأيت هذه الأسراب . ولا أحسبنا فى حاجة إلى رؤيتها لنعرف أن الشجاعة التى تتعلق بالعادات الموروثة غير الشجاعة التى تتعلق بإرادة المريد ، وكل من شهدنا فى أرض نيبون من باقرى بطونهم وباخعى(١) أنفسهم فانما هم قالب واحد لا يختلف باختلاف البيئات ولا باختلاف

---

(١) باخعى أنفسهم : بخع نفسه : أهلكها .

الأفراد . وليست هكذا تكون الصفات التى مرجعها إلى مزية فى الإنسان ومزية فى الخلق والتكليف .

* * *

قال التلميذ : أو ليس القوم خيراً من هؤلاء الصينيين الذين ترضى عنهم ولا تضيق ذرعاً بعشرتهم ومراقبة أحوالهم ؟ .

قال المعرى : أما إن أردت أنهم أفلحوا حيث أخفق الصينيون فأنت على صواب . وإما أنهم يفلحون هكذا لو كانت أرضهم هى أرض الصين وأحوالهم هى أحوال الصينيين فذلك هو البعيد .. إن القوم قد أخذوا قديمهم من الصين وأخذوا حديثهم من الغرب ووجدوا فى عزلتهم من وراء بحرهم . وعلى خصاصة(١) عيشهم . متسعاً من الوقت يأخذون فيه ما يأخذون ويدعون ما يدعون .. فان أردت الإنصاف فضعهم حيث وضعت الدنيا أبناء الصين وأنت ترى الفرق بين الأمتين !.

* * *

قال التلميذ : يعنى الأستاذ الفرق بين المنتصرين والمنهزمين ؟ .

قال المعرى : نعم .. وما يدريك لعل أهل نيبون يخدمون أهل الصين بهذه الهزيمة وهم لا يشعرون ؟ لقد كان هؤلاء المنهزمون شتيتاً من الخلق فجمعتهم الهزيمة فأصبحوا أمة تنضوى إلى لواء واحد ، فاذا بالمنتصرين يخافونهم بعد خمس سنوات تجردوا فيها لاتخاذ الأهبة وتوحدوا أو كادوا ، فكيف يكون شأنهم لو تجردوا لاتخاذ الأهبة متوحدين خمسين سنة لا خمس سنوات ، ومن ذا الذى يهزمهم فى المشرق أو المغرب لو تهيأ لهم الوقت كما تهيأ لأعدائهم المنتصرين ؟ علم الله لولا أن أهل نيبون يخافونهم ويفزعون من غدهم لما عاجلوهم بالعدوان ، وما أخالهم مع ذلك آمنين عقبى الأمور ..

* * *

(١) خصاصة : فقر .



قال التلميذ : من يسمعك يا مولاى يحسبك من دعاة « الكومنتاج » أو من غلاة المتشيعين لأنجيل « سون يانسين » .

ولو كان أبناء نيبون قد أساءوا استقبالك لزعمت أن فى نفسك إثارة من سواء ما استقبلوك . ولكنهم جمعوا لك المسلمين فى عاصمتهم واستمعوا لك فى معبدهم ومسجدهم . وصحبوك وبجلوك . ومللتهم ولم يملوك . فأعجب العجب أن تبغضهم هذه البغضاء وأن تألف الصينيين هذه الألفة ..

فقاطعه الحكيم قائلا : لعلهم أساءوا من قبل هذه الحفاوة ! ..

فابتدره التلميذ مستغربا : كيف أيها الحكيم ؟ أيأبى مولاى الكرامة وهو كريم ؟ ! ..

فأجاب المعرى : نعم آباها إذا كانت تجارة وكنت أنا فيها سلعة من السلع المعروضة أو ذريعة من ذرائع الترويج والخديعة .. هؤلاء الناس لم ينشئوا مسجدهم لله ولا للعبادة ولا للمسلمين ولا لأبى العلاء . ولكنهم أنشأوه للبيع والتجارة . وما نحن بالسلعة الرخيصة فى أسواق التجار ..

* * *

قال التلميذ متسائلا : وحفاوة المسلمين فى الصين ما شأنها وما شأن التجارة والكرامة فيها ؟ .

قال أبو العلاء : تلك حفاوة قريب بقريب . وأظن المحتفين بنا هنا قد كانوا مسلمين منذ قرون ! .

فصاح التلميذ : كأنما فوجىء بكلام لم يخطر له على بال :

تض يا مولاى ؟ لقد حسبت أن عندك من خبر المسلمين هنا مما ليس عندنا ، وإننا نسمع من تاريخهم لديك فوق ما سمعنا ! .

قال : وما سمعتم ؟ .

قال : سمعنا حديثاً يشبه الأحاجى والأساطير .. سمعنا أنهم دخلوا الصين قبل زمان مولاى بعهد طويل ، وإن قتيبة بن مسلم الباهلى قد غزا أطرافها فى عهد بنى أمية . فكتب إليه ملك الصين أن أبعث إلى رجلا شريفاً يخبرنى عنكم وعن دينكم . فانتخب قتيبة عشرة رجال لهم جمال وألسن وبأس وعقل وصلاح ، وكان منهم هبيرة بن مشمرج الكلابى فقال لهم : إذا دخلتم عليه فاعلموه أنى قد حلفت أنى لا أنصرف حتى أطأ بلادهم وأختم ملوكهم وأجبى خراجهم ..

فقال لهم ملك الصين : قولوا لصاحبكم ينصرف فانى قد عرفت قلة أصحابه . وإلا بعثت إليكم من يهلككم . قالوا كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله فى بلادك وآخرها فى منابت الزيتون ؟ وأما تخويفك إيانا بالقتل فان لنا آجالا إذا حضرت فأكرمها القتل .. لسنا نكرهه ولا نخافه . وقد حلف أميرنا ألا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويختم ملوككم وتعطوا الجزية ..

قال ملك الصين : فأنا نخرجه من يمينه ونبعث تراب أرضنا فيطأه . ونبعث إليه بعض أبنائنا فيختمهم ونبعث إليه بجزية يرضاها . ثم أجازهم وبعث بما ذكر إلى قتيبة فقبل الجزية وختم الغلمان وردهم ووطىء التراب . وأنشد شاعر فى ذلك :

لا عيب فى الوفد الذين بعثتهم
للصين أن سلكوا طريق المنهج
كسروا الجفون على القذى خوف الردى
حاشى الكريم هبيرة بن مشمرج
أدى رسالتك التى استدعيته
فأتاك من حنث اليمين بمخرج

فأصغى أبو العلاء ثم قال :

ولا كل هذا سمعنا ! فلا تعجب أن يكون المحدثون أعلم بالزمن القديم من الأقدمين ..



# زعيم الصين

جلس الشيخ فى فرضة(١) الصين الكبرى « شنغهاى » وإلى جانبه تلميذه يترجم له الخطاب الذى ألقاه زعيم الصين الكبير شيانج كاى شيك عن السيد المسيح صلوات الله عليه .

وكان الشيخ – وهو من المعنيين بأمر الأديان والمشغولين بعقائد ذوى الآراء – قد سمع أن الزعيم الصينى تحوّل عن عقيدة آبائه وأجداده مع حرص أهل الصين على تراث الآباء والأجداد . وآثر المسيحية كما آثرها من قبله أستاذه وأستاذ الصين الحديثة « سون ياتسين » .. فعجب لهذا التحول واشتاق أن يعرف أسبابه وبواعثه من السياسة أو من خطرات الضمائر وبدوات النفوس . فلما أنبأه تلميذه أن الزعيم يتكلم عن السيد المسيح أصغى إليه وقال : أسمعنى ما يقول ! .

وانطلق التلميذ يترجم ما عدده الزعيم من أسباب حبه المسيح وإيثاره عقائد النصرانية وهى : أن المسيح كان قائد ثورة وطنية نهض بأمته فأحياها بعد أن أماتها طمع الرومان وعسف الطغاة من الأمراء والكهان ، وأن المسيح كان قائداً لثورة الإصلاح الاجتماعية كما كان قائداً لدعوة النهضة السياسية ، فأنحى على الفساد والمفسدين وبشر بالطهارة من الرجس والرجاء فى الخير والاستقامة .. وأن المسيح كان مع دعوته القومية والاجتماعية داعياً إلى الثورة الدينية متمرداً على الشعائر البالية والخرافات الموروثة والرياء الشائع بين أئمة الدين وأحباره ، وانه قد استطاع ما استطاعه وهو رجل فقير من بيت فقير فى بلد فقير . فلم يكن وارث ألقاب وأموال . ولم يكن سليل أحبار وأقطاب ، ولا كان له مظهر من مظاهر الدراسة الحاوية ولا التعلق الموقر بالنفايات والقشور . بل كان صاحب قلب كبير يستوحى العناية الربانية ويستلهم الفطرة السليمة ،

(١) فرضة : محط السفن فى البحر .

ويروى عن صفحات الكون ولا يروى ما حشيت به الأوراق وامتلأت. به قماطر المباكل ..(١) .

قال المعرى : أرأيت ؟ .

قال التلميذ : ماذا أيها الحكيم ! .

قال إن الرجل قد دان بالمسيحية لأنه قد آخى بين حياته وحياة المسيح ، واعتد نفسه مسيحاً جديداً قام من سلالة الفقراء ومن لا يحسبون بين العلماء واختاره الله لإحيـاء الصين بما ابتعثه فيها من ثورة قومية على الطغاة والمغيرين ومن ثورة اجتماعية فيما سمـاه « الحياة الجـديدة » وأوصى فيه بالتطهر والاستقامة والفـداء ، ومن ثورة دينية فيما أنكره على الكهان والشيوخ . فهو قد آمن بالمسيح لأنه يؤمن بنفسه ، وهو قد أبغض الرومان لأنه يبغض « المانشو » واليابان وزمرة المتجرين بالأديان .

* * *

قال التلميذ : أو تأذن أيها الحكيم باضافة قليلة .

قال المعرى : أو كثيرة ! .

قال التلميذ : لعله آمن بالمسيح لأنه آمن بنفسه وآمن معها بزوجه.

فسأله المعرى : وماذا تعنى ! .

قال أعنى أن « شيانج كاى شيك » يتيم تكفلت به أمه وأنفقت عليه من سم الخياط(٢) ومن فضل الطوى والقناعة ، ورجت فيه الخير يوم يئس منه الأقربون ونفضوا الأيدى من حاضره ومؤتنف أمره .. وما زال يستمدها العون حتى بعد أن كبر وتولى القيادة وباء بالهزيمة وفر إلى اليابان وهو لا يملك قوت أيام . فللمرأة شأن أى شأن فى قلبـه وعقله ، وخليق بمن كان كذلك ثم رزق الزوجة الصالحة الرشيدة أن يركن إليها ويطمئن إلى عطفها وخلوص طويتها ، ويحسب الصلاح فى صلاحها ،

(١) قماطر : جمع قمطر : وهو وعاء كالقفة من قصب .

(٢) سم الخياط ثقب الابرة .



وللدين فى دينها والإيمان فى إيمانها . فإذا كانت مسيحية فما أقربه مع الأيام أن يتسلل إلى الإيمان بالمسيحية وإذا كانت من أسرة قديرة على المذهب المسيحى فما أولاه أن يعيش فى كنف الأسرة وأن يشعر بشعورها ! ولقد كانت لأستاذه « سون ياتسين » زوجة مسيحية فحسن على يديها إيمانه بدينها .. وما كانت زوجة الأستاذ العظيم إلا شقيقة زوجة المريد العظيم . فما أعجب هذه الأسرة التى أنجبت بنتين يدين بدينهما زعيمان من زعماء الصين كبيران ، ورجلان من رجال العـالم خطيران . عدا من أنجبت من أبناء وبنات كلهم علم من أعلام هذا الجيـل فى هذه البلاد ؟

* * *

قال المعرى : لا عجب إذن أن يؤمن الرجل بالعقيدة التى توافق إيمانه بنفسه وإيمانه بزوجه وإيمانه بأستاذه ، وإيمانه برجاء بلاده .

فعاد التلميذ يسأل : وما رأى الحكيم فى رجاء بلاده ؟ .

قال المعرى : إن نقصت مساحات أرضها فقد تزيد قوة نفوسها ، وإن تقاربت مسافاتها وأطرافها فقد تتقارب علاقات سكانها وأواصر أبنائها . وإن غلبوها بالسلاح فقد تغلبهم بالكثرة ، وإن طال الزمن على رجائها فما هو بأطول من أزمانها فى القنوط والجمود .. هى ناجحة فيما أرجوه ويرجوه لها المنصفون ..

قال التلميذ : تلك بشرى يفرح بها القوم إذا سمعوها فهل من وصاة أوصيهم بها ، وهل من آفة أحذرهم عواقبها ؟ .

قال المعرى : آفة القوم أنهم بين الحضر والبادية . فلا هم جادون فى الحضارة ولا هم جادون فى البداوة . فليجدوها فى إحداهما فذلك خير من حيرة المنبت(١) لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى .

قال التلميذ : لكأنك يا مولاى قد عشت فى الصين منذ عشت فى الدنيا .. لو رأيت بناءهم لرأيت قصورا فى أشكال خيام . وذلك شأن كل « بناء » فى الصين .

(١) المنبت : المنقطع عن أصحابه فى السفر .

# زهدان

شتان زهد الهند وزهد نجد

ذاك زهد السآمة من الوفر والإغراق والابتذال . وهذا زهد الأنفة فى وجه الضنك والضرورة .

زهد الهند زهد الذى اكتظ من صنوف المائدة حتى عافها وأعرض عنها ..

وزهد نجد زهد الذى لم ير المائدة وأنف من مذلة الحاجة إليها ..

• • •

كان هذا حديث المعرى لتلميذه وقد وصلا إلى جدة وقفلا من مدن الحجاز . بعد طواف طويل فى الصين والهند وفارس والعراق .

وكان التلميذ يسأل أستاذه عن شظف النجديين من أتباع عبد الوهاب ، إذ يحرمون على أنفسهم كل ما يعز عليهم وجوده فى الصحراء النجدية . وهو ينتظر رأى المعرى فى هذا الشظف ، وقد علم أنه أخذ نفسه بمثله أيام الحياة ..

فلما قال المعرى إن القوم فى الصحراء يزهدون زهد الأنفة فى وجه الضرورة فهم أن حكيم المعرة يستكبر أن يساويه فى زهده مئات وألوف ، وأحب أن يحسب القوم مضطرين غير مخيرين ، أو مسوقين غير سائقين ، فرجع إليه سائلا :

أفترى كل محتاج زاهداً فيما يحتاج إليه ، آنفاً من الإقرار بالحاجة والحرمان ؟ ..

قال الشيخ : كلا .. إنما تفعل ذلك الأمم التى لها عزة وليست لها وفرة . فهى إذن تفرض على نفسها القناعة وتنفض عنها شعور المذلة ،



ولو ضعفت ولانت لجمعت على نفسها حرمان الفقر وحرمان الذل والاستكانة ، فترى أنها محرومة وأنها دون من يستمتعون بالخير والبذخ والرفاهة ، ولا ترى كما يرى هؤلاء النجديون أنهم محرومون وأنهم مع ذلك خير من المستمتعين ! ..

قال التلميذ : لا غرو . إننى لأسمع المعرى الهندى ! .

قال الشيخ : ويحك . هل عدنا إلى قديم هذه الدعوى ؟ فمن ذاك المعرى الذى ولد فى الهند أو الهندى الذى ولد فى المعرة ؟ .

قال التلميذ : هو الذى قال :

غدوت مريض العقل والدين فالقنى
لتسمع أنباء الأمور الصحائح
فلا تأكلن ما أخرج الماء ظالماً
ولا تبغ قوتاً من غريض (١) الذبائح
ولا بيض أمات أرادت صريحه
لأطفالها دون الغوانى الصرائح
ولا تفجعن الطير وهى غوافل
بما وضعت فالظلم شر القبائح
ودع ضَرَب (٢) النحل الذى بكرت له
كواسب من أزهار نبت فوائح
فما أحرزته كى يكون لغيرها
ولا جمعته للندى والمنائح
مسحت يدى من كل هذا فليتنى
أبهت لشأنى قبل شيب المسائح
بنى زمنى هل تعلمون سرائرا
علمت ولكنى بها غير بائح

---

(١) غريض : الطرى من اللحم وغيره .

(٢) ضرب : بفتح الضاد والراء : العسل الأبيض الغليظ .

سريتم علــى غى فهـــلا اهتــديتم
بمـا خــبّرتكم صــافيات القــرائح
وصاح بكم داعى الضــلال فما لكم
أجبتم عــلى ما خيّلت كل صــائح
متى ما كشفتم عن حقــائق دينكم
تكشفتم عن مخــزيات الفضــائح
فان ترشــدوا لا تخضبوا السيف من دم
ولا تلزموا الأميـال سبــر الجرائح
ويعجبنى دأب الذين ترهبــوا
ســوى أكلهم كد النفوس الشحائح
وأطيب منهم مطعمــا فى حيــاته
ســعاة حــلال بين غاد ورائح
فما حبس النفس المسيح تعبــدا
ولكن مشى فى الأرض مشية سائح

* * *

أليس فى بعض هذا ما ينسب الرجل إلى أمة الهند ودين البرهميين ؟ ألست يا سيدى قد رضيت أن تهلك ولا يهلك فرّوج من بنات الطير لتتداوى بالسليق من لحمه ومائه ، وقلت لهم : استضعفتموه فتداويتم به . ولو كان شبل أسد لما وصفتموه ..

فجرى السخط فى مجراه من قلب الشيخ الكظيم .. ومن مجراه فى قلبه أن ينقلب هزؤا كلما أوشك أن ينفجر غضبا . وقال : لو صح هذا لما بقيت أمة فى الأرض إلا نسبت إليها .. ما لكم لا تصدقون إنها الفاقة وإنها الرحمة ؟ أبلغ من سوء ظنكم بأنفسكم ألا تفرطوا فى أكلة إلا خوفاً من غضب معبود ؟ وماذا يضيرنى من برها إن غضب وما هو بصاحب نار ولا بصاحب نعيم ؟ وما لى ولدين أناس يؤمنون بقداسة بعض الحيوان ونجاسة بعض الإنسان ؟ ذلك لايلمسونه من هيبة ووقاية وهذا لايلمسونه



من كبر وزراية ! ويحك ! أينسب إلى الهند من يحقن الدماء ؟ فما قولكم فى الحسام وهو من الهند فى المعادن والأسماء ؟ .

ثم ماذا تقولون فيما قلت :

وجدت الشر ينفــع كل حين      ومن نفع به حُمل الحسام
وليس الخير فى وســع الليالى      فكيف نــومها مالا يسام ؟

* * *

انى إذن لمن أتباع صاحبكم نيتشة ؟ أو من أتباع أصحابه الفاشيين ؟ ومالك لا تحسب على انكارى لزعم الهند حين أنقض ما يقولون :

يقولون إن الجسم ينقل روحه      إلى غيره حتى يهذبها النقل
فلا تقبلن ما يخبرونك ضلة      إذا لم يؤيد ما أتوك به العقل

* * *

وأشفق التلميذ أن تكون غضبة فسكون .. وقد علم أن صاحبه أصعب ما يكون مراسا إذا سكن بعد غضبة . فيومئذ لا كلام ولا حوار ولا جواب غير الوجوم والازدراء ، ولكنــه إذا انتقل من ثورة إلى ثــورة أو تدرج من سخرية إلى فكاهة .. فى استطالة الحديث معه رجاء ..

قال التلميذ : أمن النسبة إلى الهند ينفر مولاى كل هذه النفرة ؟ فمن قال إنه من الفرس كيف يجاب ؟ ومن زعم أنه من المجوس ماذا يسمع من زجر وعقاب ؟ ..

قال المعرى : يقال له صدقت وبررت ، وإنه مع ذلك لعلى دينهم لأنه يعجب منهم إذ يقول :

عجبت لكسرى وأشياعه      وغسل الوجوه ببول البقر

فمن التقية أن ينكر الإنسان ما به يدين . وأن يكون نكرانه علامة اليقين .. أليس كذلك ؟ .

* * *

وتلطف التلميذ اللبق فى نقل الحديث إلى فارس والفرس وما كان فيه وما يكون . وتذاكرا ما مر بهما ومرا به فى تلك البلاد . فسرى عن الشيخ بعض ما اعتراه من غضب وامتعاض لنسبته إلى البراهمة والمجوس . وضحك الشيخ وتلميذه كثيراً حين ذكرا ذلك الكرسى الذى كان يجلس عليه بعض الشاهات — عند قضاء الحاجة — فيعزف بالنشيد الملكى تحية للجالس عليه !! وقال الشيخ : حسنا صنع عاهل الفرس الجديد أعانه الله على ما تصدى له من خير وتهذيب .. إنه أراح أمته من هذه المراسم وهذه التفخيمات التى أفسدت عليهم ما أفسدت ، ونسوا كل شىء ليذكروها وحدها حتى حين ينسى الإنسان كل تفخيم وتبجيل .. إن المراسم آفة هذه الأمة الطيبة الرضية ، فلا أدب لهم ولا علم ولا دين ولا شريعة إلا وفيها آية المراسم ظاهرة ، وتحية المراسم ناطقة ، وديوان المراسم معقود ومشهود . ولئن خلصوا منها لقد خلصوا من قيود تحبس الرؤوس قبل الأعضاء والأقدام ..

* * *

فسأل التلميذ : وماذا بقى منها فيستحب لهم الخلاص منه ؟ .

قال المعرى إنهم يقتدون بالأمم الكبرى فى أزيائها وشعائرها ، وأن أخوف ما نخاف عليهم أن يحسبوا القوة والمنعة فى هذه الأزياء وفى هذه الشعائر ، فيتقيدوا بها من جديد ويخلصوا من تقليد إلى تقليد ، ولئن هداهم عاهلهم السديد فى مسعاهم المجيد ، لقد بلغ بهم ما لم يبلغه الأكاسرة ولا الهرامزة الأولون ..



# فى مصر

على مقربة من سيناء قال حكيم العربية لتلميذه كأنما هو الذى يقوده : هذه هى البادية ! ..

قال التلميذ : أو قد عرفتها ؟ قال : كيف لا أعرفها .. وإن الشمس لتتغير وما غير الله البادية منذ خلقها ، ولا يغيرها حتى يطويها مع الأرض أو السماء ! ..

قال التلميذ : فعلى اليمين بيت المقدس وعلى الشمال أرض مصر . فأيهما يؤثر الأستاذ بالزيارة ؟ ..

وكان شيخنا قد سمع شيئاً عن متاعب فلسطين والشرق العربى . وسمع شيئاً عن عجائب مصر .

فأنشد :

أما الحجاز فما يُرجى المقام به    لأنه بالحرار(١) الخمس محتجز
والشام فيه وقود الحرب مشتعل    يشبه القوم شدت منهم الحجز (٢)
وبالعراق وميض يستهل دما    وعارض بلقاء الشر يرتجز

ثم قال : لا أدخل أرضا يجلى عنها العرب . فلندخل مصر آمنين .

قال التلميذ : إن أبيت أن تدخل أرضا يجلى العرب عنها فهلا بعثت إليهم بتحية أو نصيحة ! .

قال الشيخ : النصيحة لهم أن يصاولوا بالقوة والمال من يغلبونهم بالقوة والمال .. فهم هم الظافرون ، قصر الزمان أو طال ..

وسأله التلميذ : ومن أين لهم بقوة ومال ؟ .

(١) الحرار : جمع حرة بكسر الحاء : الأرض ذات الصخور السوداء .
(٢) الحجز : جمع حجزة بضم الحاء وهى معقد الإزار .

قال : من العزم والإباء .. من أبى ما هو فيــه استمد العزم من إبائه ، وجاءته القوة والثروة إلى موطىء قدميه .

قال التلميذ : وهبهم بلغوا منهما جهد الطاقة أفيبلغون منهما يا مولاى مبلغ الدول الكبار ؟ ..

فأجابه الشيخ : بل يبلغون منهما ما يتعب الدول الكبار . وحسبهم أن يتعبوها فيستريحوا . أو يرجعوا إلى حال خير من قبول الصياع والفناء .!

* * *

ودخل مصر فقضيا أياماً بين ترحيب وتسليم ، وبين ربوع وآثار . وسأل الشيخ بلسان أبى الطيب الذى كان يتعصب له ويستعيد شواهده :

أين الذى الهرمان من بنيـانه ... ما قومه ؟ ما يومه ؟ ما المصرع ؟

ثم أنشد :

تتخلف الآثار عن أصحـابها ... حيناً ويدركهـا الفناء فتتبع

ثم قال : أشهد وأنا بينهما أنهما لم يفنيا ولم يتبعا .. فما أعظم يقـين بأبى الطيب بفعل الزمن ودولة الفناء ..

قال التلميذ : ما هو بأعظم يقيناً بالزمن وفعـله والفناء ودولتـه من القائل :

زحل أشرف الكواكب دارا ... من لقـاء الردى على ميعـاد
ولنار المريخ من حـدثان الد ... هر مطف وإن علت فى اتقاد!

فرد عليه الشيخ خاشعاً وهو يجمجم بين شفتيه : نعم . وتهون الأعمار عند ذلك وتهون الخلود ..

واسترسل التلميذ فى نغمته الأولى فقال : هذا لحد أبىَ أن يصـير لحدا مرارا ، وأبى أن يضحك من تزاحم الأضداد .

قال الشيخ وهو فى جمجمته الأولى : لقد دخله الأحياء فأبى أن يكون



لحدا مرة بله المرات ، وضحك من صاحبه الأول قبل أن يضحك من أضداده .. وإنى والله لأسأل عن هذا الطود المشيد كما سألت عن الورقاء :

أبكت تلكم الحمـامة أم غنـ ... ـت على فرع غصنها الميـاد

فما أدرى هنا أهو عنوان غلبـة الموت أم عنوان غلبة الحياة .. إنما هو على الحالين عنوان شقاء الإنسان ، وعبث الطغيان .

وعاود الشيخ وجومه على أشد ما يكون بين أطلال الفراعنة ومروج وادى النيل ، وأنه ليروض نفسه على إقامة أيام إذ حانت له الطرفة التى سماها أعجب العجائب فى بلاد العجائب ، فانتوى الهجرة من قريب .

* * *

كان ذلك فى ناحية من الصحراء وقد تردد عليه رجل من كتاب الصحف فسأل الشيخ تلميذه : ماذا عساه يريد ؟ .

قال التلميذ : أنه يعتذر ..

قال : ومم الاعتذار ؟ ..

قال : ان الرجل لكاتب المقال الذى أطلعتك عليه تفكهة وعبرة يوم وصلنا إلى هذه الديار .

قال : تعنى الرجل الذى نعى على حكومة هذا البلد إنها احتفلت بمن سماه إمام الملحدين وشيخ الكافرين ، وإنها من أجل ذلك خليقة باغضاب المسلمين والمروق من حظيرة الدين .

قال التلميذ : هو بعينه .

فعجب الشيخ وسأل : وما اعتذاره اليوم ؟ .

قال : اعتذاره أنه سيلقى عليك المقال الذى أعده للإنحاء على الحكومة لو أنها قصرت فى لقائك ، وأحجمت عن استقبالك . فهم خصوم الحكومة ينعون عليها كل ما تفعل ويقدحون فى كل ما تنوى ، فان هى أكرمت

وفادتك قالوا ما قد علمت .. وإن هى قصرت فى حفاوتها فهم قائلون ماستسمعه الآن ..

قال المعرى : أحسبهم كانوا قائلين يومئذ إن هذه الحكومة تنكرت للعرب وآداب العرب . وقطعت ما بينها وبين لغـة القرآن من سبب . وباعت نفسها للفرنجة . وحادت عن سواء المحجة ، وغير ذلك مما ينتظم فى هذا النظام ! ..

قال التلميذ : أحسنت يا مولاى .. إنك اليوم لفى طليعـة المرشحين للكتابة فى الصحف السيارة ، وعلى رأس المقدمين للخوض فى غمـار السياسة المصرية .. هكذا كتبوا ، وعلى هـذا دأبوا . ولهـذا أقبلوا يعتذرون وفى هذه اللجاجة تنقضى عليهم الأيام والسنون .

فردد المعرى قوله القديم :

ماخص مصرا وبأ وحـدها   بل كائن فى كل أرض وبأ ...

لكن هذا هو الطاعون الذى يحمد عنده كل وباء

إلى المعرة يابنى فقد ختمنا المطاف، وشبعنا من المضيفين والأضياف .

وكان « كاتب هذه الأسطر » فى محضر الفيلسوف فقال : إن أسوان تدعوك أن تجعل الأوبة من طريق الجنوب . وإن طالت المسالك واختلفت الدروب ..

فدارت على لسان الفيلسوف نوبة الاستشهاد بكلامه القديم ، وأجابه ببيت من لزومياته يذكر فيه أسوان إذ يقول :

أسـوان أنت لأن الركب نيتهم   أسوان ..أى عذاب دون عيذاب؟!

لقد زرتك فيها قبل اليوم يابنى ، فاحتسب دعوة اليوم فى تلك الزيارات . وخلنا فى عالم الفكر من هذه المجاملات والمصانعات . أما



دعوتنى فيها وأنت يافع تحسب أنك تكره الحياة لأنك مملوء اليـدين بالحياة ؟ أما دعوتنى فيها وأنت فتى تثور وتحسب أننى معك حين تثور ؟ أما دعوتنى فيها وأنت كهل تصالح الدنيا لأنك أنفت من مخاصمة الدنيا ؟ أما دعوتنى فيها وأنت تزعم أنك تناقضنى بانكار الأحزان وما أنكرتها إلا ترفعاً عن الشعور بالحرمان ؟ إنك دعوتنى كثيراً وإننى أجبتك كثيراً . وإننى لألقاك حيث أنت خير لقاء . وإنك لتلقانى وتسمعنى حين تشاء .

# نشيد وداع

بُناةٌ ضريحى طال بالصخر إبطاء
فهبل وطَّأوه أو تعداه إبطاء ؟

وهل لأن أو يأبى على اللين نُخوة ؟
وهل رقَّطوه أو سرت فيه رقطاء ؟

عرفت انتظار الموت . أما منية
وطول انتظار . فهو للقصد أخطاء

« متى يتقضى الوقت والله قادر »
فتغطيني الدنيا ويحمد اغطاء(١)

أرانى لديكم كالمعرى معرضاً
لمن شاء والركبان حولى خبطاء(٢)

أقسم للذكراى المآدب فاستوى
بمأدبة الديان منع واعطاء

وما نضجت تلك الثمار فما بالكم
دعوتم ولم تخرج من الزرع أشطاء(٣)

ذرونى فلى فيكم كتاب وسيرة
جديدٌ صباها وهى فى الدهر شمطاء

---

(١) اغطاء : بمعنى غطاء .
(٢) الفرس الخبطاء : التى تضرب الأرض برجلها وهو من علامات المرح أو القلق
(٣) أخرج الزرع شطأه : أى ظهر فيه الورق والفروع .



إذا حان يوم بينكم فهى عندكم .
وعندى لكم شكر لراعيه طاطاء(١)

وهذا وداعى لازم غير لازم(٢)
إذا عاب بعض الشعر عىٌّ وإيطاء(٣)

لعل أراكم بعد ألف وبينكم
ألوف لهم ذكرى متى الحمد عيطاء(٤)

عن المعرى
عباس محمود العقاد

---

(١) أى موطأ متضامن .
(٢) من لزوم مالا يلزم .
(٣) لتكرار القافية .
(٤) طويلة الجيد .

# فهـرس